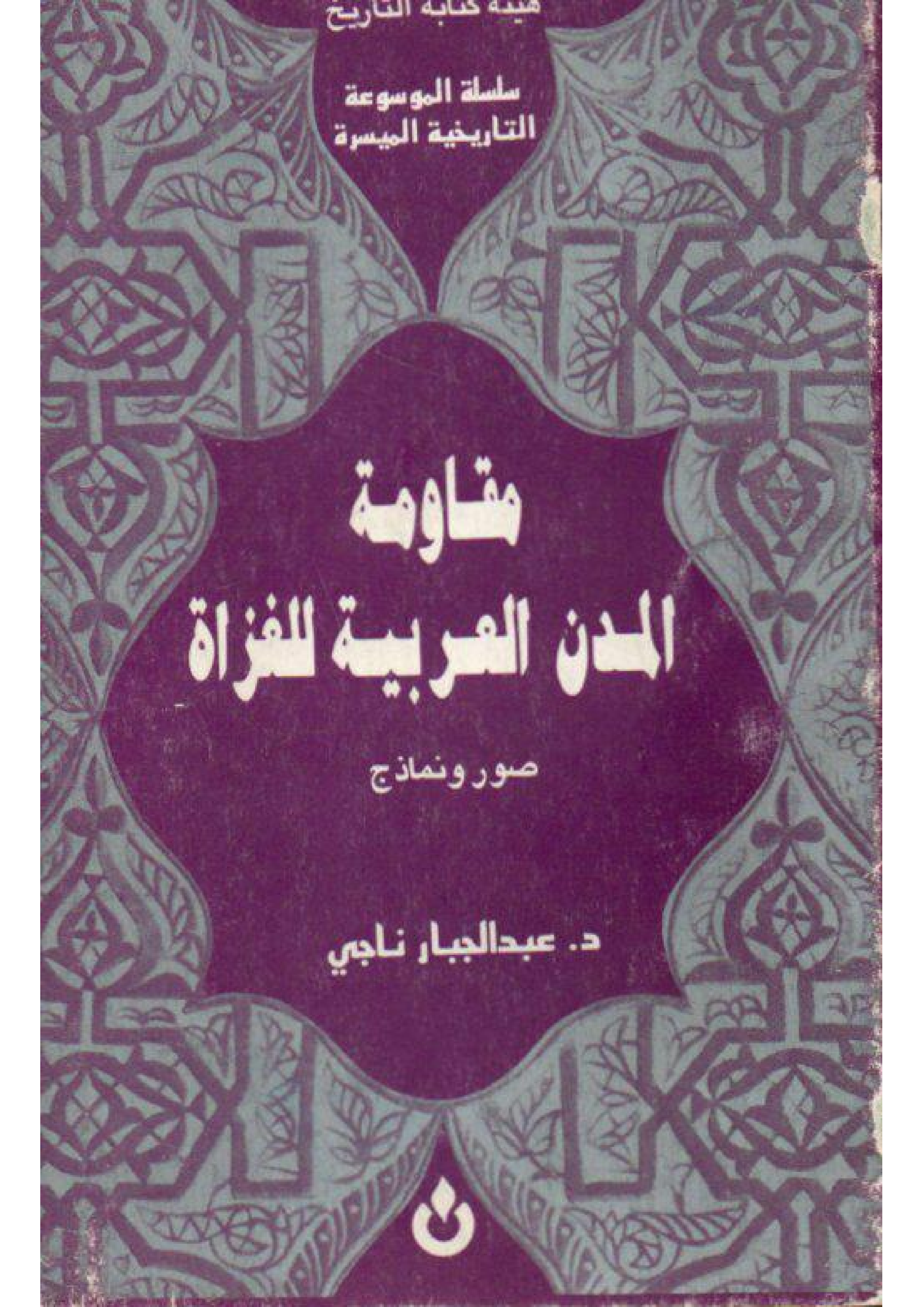

هيئة كتابة التاريخ
سلسلة الموسوعة
التاريخية الميسرة
مقاومة
المدن العربية للغزاة
صور ونماذج
د. عبدالجبار ناجي

وزارة الثقافة والاعلام

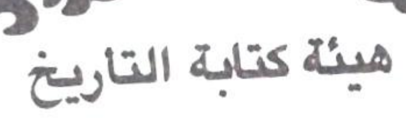


بغداد ١٩٨٨



طباعة ونشر
دار الشؤون الثقافية العامة «آفاق عربية»
رئيس مجلس الادارة :
الدكتور محسن جاسم الموسوي

تعنون جميع المراسلات
باسم السيد رئيس مجلس الادارة
العنوان :
العراق - بغداد - اعظمية
ص . ب . ٤٠٣٢ - تلكس ٢١٤١٣ - هاتف ٤٤٣٦٠٤٤



سلسلة الموسوعة التاريخية الميسرة

مقاومة المدن العربية للغزاة

صور ونماذج

د . عبد الجبار ناجي

الطبعة الاولى - لسنة ١٩٨٨

الفصـــل الاول

المدينة العربية / التحدي والاصالة

قد يتبادر الى ذهن المرء في بداية الحديث عن هذا الموضوع سؤال حول كيفية وقوف المدن ـ بشكلها المجرد ـ عربية كانت أم غير ذلك ، في وجه المعتدين ومقاومتها لجميع مخططات الغزاة والطامعين الاجانب ؟ وهو أمر يدعونا الى توضيح ماهية المدينة ، والمدينة العربية بوجه خاص ، وتحديد معانيها ·

فالغربيون ، مثلا ، يعلقون اهمية كبيرة على ما وضعه علماء الاجتماع من تحديد وتعريفات للمدينة في دراساتهم المتعلقة بحقل التمـدن Urbanization

وعلماء الاجتماع بطبيعة الحال قد انطلقوا من زاوية علم الاجتماع الانساني والعمراني · ولذلك فأنهم عزوا مثل هذه التحديدات الى التفكير الغربي متغافلين عن مسألة جوهرية هي ان العلماء واللغويين العرب هم ايضا قد

اهتموا بهذا المجال وسبقوا علماء الاجتماع الغربيين في توضيح الاسس العلمية للمدينة من الزاوية التراثية الانسانية والمكانية والقانونية . وهي امور يجد المرء لها مقابلات معاصرة .

فالمدينة عند علماء الاجتماع الغربيين تعني ذلك المكان الطبيعي للفرد المتمدن المتحضر ، وهي ايضا يقصد بها تلك الرقعة المحددة من الارض ، ويضاف الى هذا التحديد الجغرافي البحت عنصر اقتصادي اذ تكون فيه المدينة ذلك المكان المستقر الذى ينشغل اكثر ساكنيه او شاغليه بمزاولة انماط انتاجية غير زراعية اي بمعنى تمييزه عن القرية (او الريف) بالنمط الواحد في الانتاج وهو الزراعة ، كذلك فان بعض علماء الاجتماع قد نظر الى تحديد معنى المدينة من زاوية الكثافة السكانية فالمقصود بها المكان المحدد من الارض الذي يجتمع فيه الناس من مختلف الاجناس شريطة ان تكون نسبة تجمعهم كثيفة [١] .

واذا ما وضعنا هذه التحديدات المعاصرة للمدينة مع ما شخصه العلماء العرب من خصائص وعناصر للمدينة العربية فاننا سنصل الى نتيجة مفادها عمق تفهمهم لهذا الموضوع . ابتداءً فان المعنى اللغوي لكلمة (مدن) في المعاجم اللغوية هو المكان الذي يجتمع فيه الناس ، وعلى هذا الاساس فان المدينة عند الجوهري والفيروزابادي وابن منظور والزبيدي وغيرهم تعادل الامة . وضمن هذا الاطار

التحليلي فان المدينة عند الفقهاء العرب المسلمين يقصد بها « وطن مجتمع المنازل » وهو تعبير واضح يهدف الى ابراز عنصر الاستقرار الاجتماعي ، وانه يعد ايضا شرطا لازما ، اي اجتماع المنازل فيه • علاوة على ذلك فقد وضع الفقهاء شروطا اخرى لاضفاء صفة الشرعية التمدنية لهذا الوطن المجتمع المنازل منها : – ان يضم فيه من تنعقد به صلاة الجمعة ؛ وان لا يظعن او لا يرحل عنه اهله صيفا وشتاء ؛ وان يحل فيه امير المؤمنين ؛ وان تجبى اليه الاموال(٢) • وغيرها من الشروط الاساسية الدقيقة •

اذن فان تحديد معنى المدينة وفقا لمنظور الفقهاء واللغويين هو المكان الذي تقطنه كثافة سكانية مستقرة ، وهو امر ينقلنا الى جانب حيوي اخر له علاقة بموضوع اصالة التفكير التمدني عند العرب ، ان بعض اللغويين العرب قد قدم تحديداً اخر له أهميته المعاصرة ، فالحضارة لغويا تعني الاقامة في الحاضرة او الحضرة اي المدينة(٣) ، لهذا صارت المدينة وفقا لهذا المفهوم تقابل الحضارة لغة ومضمونا ، كما انها تعادل الامة شمولا • وحول هذه المسألة يدلي ابن خلدون باراء طريفة اذ يقول ما نصه :

« ان البناء واختطاط المنازل انما هو من منازع الحضارة التي يدعو اليها الترف والدعة »(٤) .

فقد ابرز ابن خلدون في هذا النص الصلة بين المدينة وبين ان تكون حاضرة وحضارة من جهة وبينهما وبين الامة من الجهة الاخرى ، فالمدينة تحتوي على كل مظاهر

الترف من بناء وعمران وخطط . وفي هذا الصدد يقـول ايضـا :

« فالمدن والامصار ذات هياكل وأجرام عظيمة وبناء كبير » (٥) .

المهم ان العرب قد حددوا ، في هذه الحالة ، المعنى المادي للمدينة بما فيـه البنـاء والخطط والعمـران الضخم ، والمعنى الانساني بما يشير اليه تحديد الوطـن الذي يجتمع فيه الافراد وهي الحضارة وهـي الامـة . وبذلك يعبر ابن خلدون عن الحاجة الماسة لوجود المدينـة من الناحية الحضارية اذ يقول :

« اعلم ان المدن قرار تتخذه الامم عند حصول الغاية المطلوبة من الترف ودواعيه فتؤثر الدعة والسكون وتتوجه الى اتخاذ المنازل للقرار » (٦).

كذلك فان اتخاذ العرب للمدينة لايعكس جانبا فرديا، صحيح ان هناك عدة مدن عربية قد اتخـذت او تأسست لاسباب شخصية وبانها مدينة الخليفة الفلاني او الامـير الفلاني ، لكن هذه المدينة لا تعني شيئا الا عندما يشغلهـا الناس . فالخليفة العباسي ابو جعفر المنصور مثلا عندما فكر في اتخاذ الكرخ شجع اهالي بغداد المدورة واصحاب الدكاكين والمحلات في اسواقها الى الانتقال وذلك بعـد تهيئته الاسواق والمحلات مجانا او بايجارات (٧) رمزية ، وان الخليفة الاموي في الاندلس عبدالرحمن الناصر شجع اهالي

العاصمة قرطبة الى الانتقال عندما فكر في بناء مدينـــة الزهراء التي كانت تقع الى الشمال الغربي من قرطبة . انه اسس الزهراء لكي تكون قصراً له . فهي لم تكن فى بداية الامر مدينة لكن الخليفة كما يقول ابـن حوقــل « اجتلب لها العامة بالرغبة وامر مناديه بالنداء في جميع اقطار الاندلس : الا مـن اراد ان يبتني دارا أو أن يتخـذ مسكنا بجوارالسلطان فله من المعونة اربع مائة درهم » عندئذ فقط سارع الناس الى اتخاذ الدور وبناء العمارة في الزهراء والانتقال اليها فتكاثف اهلها الامر الذي جعل ابن حوقل يعقب على هذه المرحلة اذ قال « فتكاثفت الابنيـــة وتزايدت فيها الرغبة » (٨) . كذلك الحال بالنسبة الـى مدينة الحجاج ، واسط ، ومدينة المعتصـم ، سـامراء ، ومدينة ابن طولون ، القطائع ، ومدينة ابي عبيدالله المهدي، المهدية وغيرها من المدن الشخصية . اذن فالمدينة الفردية لا قيمة لها دون اجتماع الناس ، وعلى هذا الاعتبار يرى ابن خلدون بان المدن والامصار « موضوعـة للعمـــوم لا للخصوص فتحتاج الى اجتماع الايـدي وكثرة التعـاون وليست من الامور الضرورية للناس التي تعم بهـا البلوى حتى يكون نزوعهم اليها اضطرارا بل لابد من اكراههم الى ذلك » (٨ب) .

ومما يجدر ذكره بان الاهتمام الذي ابديناه في الفقرة السابقة في اراء ابن خلدون بشأن المدينة العربية لا يعني انه يمثل التفسير العربي للمدينة بصـورة عامة ، انمــا الصحيح انه يمثل جانبا من الفهم العربي للمدينة او لنقل

انه تفسير لنوع واحد من الانواع المتعددة للمدينـــة ٠ اذ ان تفسير ابن خلدون ينطبق على المدن السياسية ، تلـك المدن التي يلعب العامل السياسي دوراً حاسما في تاسيسها٠ غير ان العلماء العرب من الجانب الاخر قد وضعوا تحديدات وشروطا ومستلزمات لاصناف اخرى كمـدن المـوانىء او المدن التجارية والمدن العسكرية ومدن الامصـــار ومـدن الحصون ومدن القصبات او مدن العواصم ومـدن الثغـور ومدن القصور بمعنى المدن التي بنيت كمتنزهات ٠٠ الخ من المدن ٠ ان هذا الحديث لامجال لدراسته هنا لانه خارج نطاق البحث ، غير ان بالامكان القول بان العرب قد وضعوا في هذا المجال ركائز ، علم التمدن ، ذلك العلم الذي صار خطأً ينسب الى الغربيين في الوقت الراهن ٠

فالاوربيون يفخمون كثيراً الخصائص الخمس التي وضعها ماكس ويبر[٩] Weber ويشيدون بها في تحديد ماهية المكان وفيما اذا كان مدينة ام قرية ام مدينة صغيرة ٠ وحاول بعض اولئك الغربيين ومن بينهم بعض المستشرقين ان يطبقوا هذه الخصائص او بالاحـرى القوانين الخمسـة لماكس ويبر على المدينة العربية الاسلامية وفيما اذا كانت مدينة بحق تمتلك هذه الخصائص ام لا ٠ وهي عمليـة تشدد بها اولئك بهدف التقليل من دور المدينة العربيـة والتشكيك في الفهم العربي للمدينة ، اذ اجمعوا على ان المدينة العربية غير اصيلة ولا تمتلك بعض خصائص ماكس ويبر ومن بين ذلك :ـ عدم توفر العـدالة فـي المدينـة

العربية ، وعدم توفر المؤسسات · وهو موضوع قد وقفنا عليه في بحوث مستقلة ووصلنا الى نتيجة مفادها ان خير دليل على ان العرب كانوا يرون بان المدينة هي المجتمع الذي تتجلى فيه العدالة ارجاعهم اصل كلمة مدينة الى (دين) التي تعني ، وفقا لما عرضه المعجميون العرب ، الملك والتملك او الحكم ، وان الحديث النبوي الشريف الذي يرد فيه تعبير « انا الملك الديان »[١٠] والحديث الشريف الآخر « يامالك الناس وديان العرب »[١١] تعكس ارتباط كلمة الدين والديان والمدينة بالملك والحاكم والعدالة والعادل · وفوق كل هذا فان الفقهاء العرب يرون ان من خصائص المدينة الاساسية ان يحلها امير المؤمنين او او السلطان بمعنى المؤسسة الادارية التي تطبق مبادىء العدالة الاجتماعية · كذلك فان هناك عدداً من الدراسات قد ابرزت وجود مؤسسة النقابة في المدن العربية[١٢] ، وان هناك تسلسلا نقابيا ومهام بارزة لنقابة كل مهنة من المهن · كل هذه ادلة تبين بجلاء حقيقة تخالف ما شدد عليه بعض المستشرقين وعلماء الاجتماع ·

مقاومة المدن العربية بين النظرية والتطبيق :

وعلى اعتبار ان المدينة العربية تعادل الحضارة ، والحضارة العربية على وجه التحديد ، فانها قد واجهت تحديات عديدة لا تنحصر في المجالات السياسية والعسكرية انما تعدتها الى الجوانب الاجتماعية والفكرية والحضارية · وكما ان هنالك تحديات متعددة قد شكلت خطراً على

المدينة العربية واصالتها ووجودها فان هذه التحديـــات والمجابهات لا تقتصر على فترة تاريخية دون اخرى ، اذ ان المدينة العربية القديمة مثلا قد واجهـت تحـــديات الغزو والعدوان مثلما واجهته مدن العراق القديم ومـــدن بلاد الشام ومدن اليمن السعيدة منذ تاريخ قبل الميلاد · ومـا شهدته من مدن بابل وأور وأشور من حمـلات عسكرية عدوانية وغزو وحصار من قبل قوى عدة كالكوتيين والعيلاميين والاخمينيين ، وكذلك ما شهدته مدن تدمر والبتراء مـن عدوان وتحدٍ بالغزو من جانب الرومان ، وماشكلته الحملات العسكرية القوية التي شنت على مـــدن اليمن السعيدة كمدينة مأرب ومخا وعدن من قبل الرومان في حملة اليوس كاليوس وحملات الاحباش ، وما شهدته مدينة مكة مـن حالات الغزو والحصار في حملة الاحباش العسكرية بقيـادة ابرهة · كل هذه المؤشرات تؤكد ان المدينة العربيـــة ، ولانها رمز الحضارة المبدعة ، قد تعرضت الى مثل هـــذه التحديات العسكرية والسياسية التعسفية ·

ومـن جانب آخـــر فـــان المدينـة العربية ، كمفهوم وكائن حضاري قد واجهت تحـديات فكـرية ، تماما كمـــا واجهـــت الحضارة العربيـــة عموما مثل هذا التحدي ؛ أأنها حضارة اصيلة ام مقلدة ؟ وهـو تحدٍ عبر عنه المستشرقـون غير المنصفين الذين حـاولوا افراغ الحضارة العربية من اصالتها وجدتها وفاعليتها · ان هؤلاء وجدوا انفسهم امام مركز الحضارة العربية ، المدينة الكيان المادي والانساني للحضـارة فتناولوهـــا بالدرس

والتنقيب سواء أكانت تلك المدينة عراقية ام سورية ام في مصر ام في المغرب العربي هادفين من وراء ذلك الى افراغها ايضا من عناصرها الحضارية الاصيلة . فادعوا بانها مدينة مقلدة ، ورأى البعض انها مدينة مقلدة للمدينة الهلينية بينما رأى اخرون انها مقلدة للمدينة الرومانية(١٣) . ان هذا التقليد ، كما ادعوا ، لم يقتصر على جانب دون آخر ، فالسوق في المدينة العربية او البازار هو تقليد لما معروف في المدن الرومانية بـ Colonnaded Avenue والقيصرية او القيسارية التي تميزت بها بعض المدن العربية كمدينة حلب والفسطاط والقاهرة تقليد للباسليطا الروماني ، والمسجد الجامع الذي يعد سمة مميزة للمدينة العربية الاسلامية وما حوله من الرحبة اللذين يقعان في وسط المدينة ان هو الا تقليد للمعبد في المدينة الهلينية ، وان الحمام الذي كان من الوحدات الطوبوغرافية الملازمة في المدينة العربية الاسلامية ان هو الا تقليد للثرما الحمام اليوناني القديم (١٤) .

كذلك فقد شدّد هؤلاء الاجانب على التركيب الاجتماعي والبنية الاجتماعية للمدينة العربية ، فرأى البعض منهم بان بنية المدينة قبلي بحت لذلك فانها على عكس المدينة الرومانية لا تعكس روحا تمدنية متطورة فالتوزيع الطوبوغرافي جامد نتيجة لذلك التكوين ، ورأى بعض آخر ان المدينة العربية تفتقر الى عنصر المواطنة فالفرد العربي لا يحمل تعاطفا او حباً لوطنه او لمدينته التي قطنها واتخذها(١٥) مسكنا ، وفي هذا الحقل فان بعضهم

قد سلط الاضواء على العناصر غير العربية ودورها في البنية السكانية للمدينة ٠

ان هذه المجابهات والتحديات الفكرية هي التي تفرض علينا ضرورة الوقوف على تحديد مفهوم المقاومة ! اذ ان المقاومة ذات اشكال وانماط عديدة سواء أكانت المقاومة التي وقف فيها اهالى المدن العراقية القديمة ازاء الاعتداءات المتكررة وعمليات الحصار المتعددة التي فرضها الفرس وغيرهم عليها ، ام المقاومة التي عبر عنها العرب المسلمون بوقوفهم سياسيا وفكريا وحضاريا في وجه التحديات التي واجهوها او التي واجهتها مدنهم ، ام مقاومة المدن العربية القديمة والحديثة ازاء غزوات واعتداءات الاجانب ٠

المقاومة هنا تعني الوعي الحضاري لسكان المدن العربية او غيرها ازاء جميع انواع التحديات وكيفية الوقوف بوجهها وصدها ، فهي مقاومة سياسية وعسكرية واجتماعية وعمرانية وحضارية ٠ فهل كان هناك وعي واقعي للعرب عندما اسسوا المدن ازاء تحديات المستقبل وما يمكن ان تواجهه مدنهم من عدوان أو غزو ؟ وهل فكر مؤسسو المدن العربية بمثل هذه التوقعات وكيفية مجابهتها ؟ ان هذه الاسئلة وغيرها تتطلب بحثاً في الاسس والمستلزمات التي وضعها مؤسسو المدن العربية واهاليها في هذه المجالات ، فهم :ـ

أ ـ كانوا يفترضون مسبقا جملة مستلزمات عسكرية محددة ، ويراعونها عند اتخاذ المدينة بهدف اشاعة الأمن فيها من اي غزو او عدوان خارجي ٠

ب ـ التفكير في الجوانب الاستراتيجية ـ العسكرية، لاسيما تلك التي تتعلق بصعوبة الوصول الى المدينة وحصانتها بما تمتلكه من مزايا جغرافية طبيعية او بتحصينها وبناء اسوار وتحصينات حولها ٠

ج ـ تهيئة المستلزمات الداخلية للدفاع عن المدينة في حالات الهجوم او العدوان بما في ذلك تشكيل فرقة من الحرس او الشرطة تأخذ على عاتقها هذه المسؤولية ٠

د ـ التفكير في اتخاذ التدابير الاقتصادية اللازمة اذا ما كان في المدينة حصن او قلعة لكي تكون ملجأً او ملاذاً حصيناً آمنا تتوفر فيه عوامل الانتاج الذاتي ٠

هـ ـ من دراسة النماذج العديدة لمقاومة اهالي المدن العربية للغزاة يجد المرء ان الاهالي كانوا يقفون بصبر وشجاعة وتحد امام حالات الغزو او الهجوم او الحصار ٠

و ـ الوقوف ازاء الحملات الفكرية المغرضة (الشعوبية) والتصدي لها ، لاسيما تلك التي تحدث في حالات الحصار العسكري طويل الامد ·

ز ـ وهناك مقاومة من نوع آخر يتجلى بتركيز العرب قادة ومقاتلين على الجوانب التراثية العربية الاصيلة عندما اسسوا المدن في المشرق (بلاد فارس ، وغيرها من اقاليم المشرق) او في الاندلس · انه تعبير عن مقاومة حضارية عمرانية ·

* * *

هذه الامور وغيرها هي التى ستكون محاور اساسية في الدراسة لتحديد عناصر المقاومة ضد الغزاة والطامعين ·

لكن لابد لنا في البدء ان نأتي الى ذكر قول مهم لابن خلدون فى هذا الصدد ، اذ يقول انه طالما كانت المدن والامصار مكانا « للقرار والمأوى وجب ان يراعى فيه دفع المضار »(١٦) ، فاختيار ابن خلدون تعبير « دفع المضار » يكشف بوضوح عنصر المقاومة فى اتخاذ الحيطة ضد العدوان ، ويستمر ابن خلدون فى هذا المجال فيقول « دفع المضار بالحماية من طوارقها وجلب المنافع وتسهيل المرافق لها »(١٧) · انه هنا يبين ما للمقاومة واتخاذ الحيطة من نتائج سلبية وايجابية ، فهي ستكون سداً واقياً للمدينة في دفع عوامل الغزو والعدوان وهي في نفس

الوقت ستجلب النفع المادي لاهاليها ، بما يشمل ذلك من تأمين طرق التجارة والمواصلات الواردة الى المدينة او الخارجة منها ، وكذلك توفير شروط السكن الآمن من مياه شرب وانتاجات اقتصادية ذاتية . ويفصل ابن خلدون هذه الجوانب تفصيلا واقعيا وذلك عن طريق ابراز الكيفية التي يدفع فيها مضار الغزو فيقول « فاما الحماية من المضار فيراعى لها ان يدار على منازلها جميعا سياج الاسوار وان يكون وضع ذلك في متمنع من الامكنة اما على هضبة متوعرة من الجبل واما باستدارة بحر او نهر بها حتى لا يوصل اليها بعد العبور على جسر او قنطرة فيصعب منالها على العدو ويتضاعف امتناعها وحصنها »(١٨) . كما ان هناك شرطا اخر يساعد في تسهيل عنصر المقاومة وحماية المدينة من خطر العدوان ، وهو كما يذكر ابن خلدون :

أ – فالمدن التي تقع على ساحل البحر ينبغي ان يراعى في تأسيسها باتخاذها على جبل .
ب – تكون بين امة من الامم موفورة العدد .

فاذا ما توفر ذلك يكون « صريخا للمدينة متى طرقها طارق من العدو »(١٩) . ويحلل ابن خلدون هذه العلاقة الجدلية بين وفرة السكان وبين عنصر المقاومة العسكريه وحماية المدينة من اي غزو بحري فيقول « والسبب في ذلك ان المدينة اذا كانت حاضرة البحر ولم يكن بساحتها

عمران للقبائل اهل العصبيات ولا موضعها متوعر من الجبل كانت في غرة للبيات وسهل طروقها في الاساطيل البحرية على عدوها ٠ (٢٠)

ان تلك الاجراءات الاحترازية الوقائية التي صرح بها ابن خلدون تتعلق ، كما مر ذكره ، بصنف واحد من اصناف المدن العربية ، اي المدن التي تقع على السواحل اذ تكون عرضة لهجمات الطامعين والغزاة من الجانب البحري ٠ وهي ان دلت على شيء فانما تدل على اهتمام مؤسسي المدن العربية بالتوقعات السياسية ـ العسكرية المستقبلية التي تشكل خطورة على مدنهم ٠ ولهذا فانهم شددوا على اتخاذ التدابير اللازمة لدرء هذه الاعتداءات واحباط مخططاتها ٠ وهي قاعدة تنطبق ايضا ، كما سنرى في الصفحات الآتية ، على باقي اصناف المدن العربية ٠

ان الافكار التي تم طرحها في هذا الجزء تشكل دليلا قويا ضد اراء عدد من المستشرقين وعلماء الاجتماع الغربيين التي تحاول ، مغرضة ، ان تصف العرب بانهم كانوا غير مدركين للتوقعات المستقبلية عند اتخاذهم العواصم او المدن بصورة عامة ، ولذلك ، حسبما رأوا ، لم تستطع الصمود والمقاومة ازاء التحديات مهما كانت سياسية ام جغرافية ام اقتصادية ٠ ان مثل هذه الاراء ، واعتمادا على ما فصلناه سابقا ، تبدو ضعيفة لان المدينة العربية تتمتع باصالة حضارية عريقة وانها لم تؤسس لتكون مدنا مرحلية مؤقتة تبعا لظروف وعوامل تأسيسها ٠

الفصل الثاني

مقاومة المدن العربية للغزاة

أ ـ المدينة العربية القديمة :

كما تقدم ، فان المدينة العربية تعد العنصر الاساس الذي تتكون منها الحضارة العربية · والمعروف ان اصول وجذور هذه الحضارة التي خدمت الانسانية قديمة جدا تتصل بحضارات وادي الرافدين المعطاء وحضارة وادي النيل · تلك الحضارات التي قدمت انجازات انسانية هائلة للعالم ، لليونان والرومان والمجتمعات الشرقية · من هنا يكون من البديهي القول بان المجتمع العراقي القديم مثلا لم يكن مجتمعا ريفيا او قرويا ، باعتبار ان الحضارة هي المدينة والعكس صحيح وان عطاءات الحضارة اية حضارة هي احدى انجازات المدينة ، والمكان المستقر حيث يتجه شاغلوه الى الانخراط في العمل في انماط انتاجية متنوعة غير زراعية كالتجارة والصناعة والعلوم المختلفة ·

وما من أحد لم يدرك الدور الذي لعبه العراق وبلاد الشام ووادي النيل في هذه المجالات الحضارية ، فالمؤلفات الكثيرة والمكتشفات الاثرية المادية الضخمة تعكس باسهاب الدور الحضاري الفعال للفرد العراقي والعربي في علاقاته مع من يجاوره تجاريا وفكريا وحضاريا • ان هذا التاريخ العريق يبرز في آن واحد قدم الاستقرار في المدن والحواضر في هذه المجتمعات العربية القديمة •

فالتاريخ العربي القديم يبرز بوضوح دور المدينة في المجالات السياسية والحضارية والاقتصادية ، اذ ان هناك دولا واسرا بل امبراطوريات واسعة وانظمة سياسية في بلاد وادي الرافدين ووادي النيل والغرب قد اشتهرت باسماء مدنها ومراكزها الحضرية فحملت اسماءها واتصفت بها امثال سلالة لارسا وسلالة اوما وسلالة لكش وسلالة ايسن وسلالة اور وسلالة الوركاء وسلالة بابل وغيرها من الدول والانظمة التي عرفت اصلا في التاريخ العراقي القديم بدويلات المدن السومرية ، وهي في الحقيقة تشير الى النواة المركزية التي تشكلت حولها تلك الدولة او ذلك النظام الا وهي المدينة • في الوقت نفسه فقد اشتهرت في اوربا ، عند اليونان والرومان ، امبراطوريات ودول باسماء مدنها او مراكزها الادارية كامبراطورية أثينا ودولة اسبارطة وامبراطورية روما • ومن الجانب الاخر فان هناك عدة مدن عربية قديمة في وادي الرافدين ووادي

النيل قد اكتسبت شهرة عالميـة موازية لشهرة الـدول والامبراطوريات التي اتخذت من تلك المدن عواصم ادارية او مراكز ادارية كمدينة اور وبابل واشور ونينوي ومنفيس وطيبة التي صارت عاصـمة فـي مصر أثنـاء عهـد الامبراطورية (٢١) ٠

وعلى الرغم من ان العوامل السياسية قد اسهمت كثيرا في رقي تلك المدن القديمة وبلوغها تلك المكانة العالية من التقدم والشهرة وانها مـدن عواصم لامبراطـوريـات كبيرة ، غير اننا ينبغي علينا ان لا نغفل اثر عوامل اخرى او نقلل من حجمها ، فالعوامل الدينية قد ساعدت بشكل او باخر على نشوء وتطـور مـدن المعـابد ، والعوامـل الاقتصادية بما في ذلك زيادة حجم العلاقات التجارية بين الدول القديمة قد ساعدت على بروز وتطور مدن التجارة ٠ فالمعروف ان زيادة حجم التجارات شجع الاهتمـام بطـرق النقل والتجارة المحلية والعالمية وساعد هـذا بـدوره على نشوء وتطور مدن الموانيء ، مما يجدر ذكره ان هناك عدداً من المدن ودويلات المدن قـد نمـت وتطورت اعتمـاداً على العوامل الاقتصادية والتجارية ٠

دون شك فكان ارتفاع شأن تلك المدن القديمة فـي حضارات وادي الرافدين ووادي النيل واليمن السعيدة وبلاد

الشام وغيرها من الدول العربية القديمة واتخاذها عواصم ومراكز ادارية لامبراطوريات ودول ذات نفــوذ سياسي واسع قد هيأ لها تربة معطاء في جـوانب حضارية عديـدة سواء أكان ذلك في الجوانب العالمية البحتة ام في مجالات التقدم الصناعي اليدوي والتجاري ام في الجوانب العمرانية بما اشتملته من رقي عمراني وفني وهي امور تشهد بها ما تبقى من آثار مادية لهذه المدن . لذلك صارت مطمح انظار الطامعين والغزاة فدبروا المحــاولات السياسية والعسكرية بهدف السيطرة عليها وضمها الى مناطق نفوذهم . ويحدثنا تاريخ العراق القديم عــن سلسلة مــن هــذه المحاولات والاعتداءات التي شنتها اقوام ترجع اصولها الاثنولوجيـــة الى المنطقة الواقعة الى الشرق من العراق ، بـلاد فـارس وشمال شرقيه في منطقة همذان وجبال زاجروس امثـال الكوتيين والعيلاميين والاخمينيين والساسانيين . كـذلـك ما شهدته مدن مصريه قديمة من اثار الغزو الاخميني زمـن قمبيز ودارا الثاني وما عانته من عوامل الغزو اليـونـاني البطليموسي ، وما راجهته بعض مدن بلاد الشام والجزيرة الفراتية من اثار الغزو اليوناني والروماني .

ان مدنا عريقة كمدينة أور ، تلك التي شكلت نواة مركزية لسلالات ودويلات ، المدينة التي كشفت التنقيبات التي جرت فيها عن ضخامة في الارث الحضاري العربي بما

مثلته الزقورات والمعابد والاسوار من رقي في فن العمارة وما دلت عليه النفائس الفنية السومرية التي تم العثور عليها

ان مدينة عراقية معطاء مثل هذه قد تعرضت لاطماع الغزاة بقصد احتلالها واذلالها ٠ ففى نهاية الالف الثالث قبل الميلاد ، ابان حكم سلالة اور الثالثة قبل الميلاد ، توجهت اقوام فارسية بحملة عسكرية قوية ضد اور مستغلة اضطراب الاوضاع السياسية داخل العراق على اثر انتهاء دور الامبراطورية الاكدية ٠ وفرض الكوتيون ، وهم من القبائل الهمجية التي جاءت من اواسط جبال زاجروس في منطقة همذان ، حصارا شديدا على المدينة العاصمة أور وقد استمر هذا الحصار مدة ، قاسى خلاله اهالي العاصمة المتاعب والشدائد ٠ ومع ذلك فانهم عرضوا مقاومة فذة ولم يستسلموا لهذه الشدائد دون تضحيات جسيمة ٠ اذ دخل الكوتيون المدينة وسيطروا عليها مدة قصيرة الحقوا بالاهالي صنوف الاذى والعنف والقسوة والارهاب ، فخربوا معالمها الحضارية والعمرانية ، وقتلوا ابناءها من النساء والاطفال والشيوخ وهدموا معابدها ٠ وابرزت احدى المرثيات من الشعر العراقي القديم حالة المعاناة التي عاشها اهالي المدينة وهم محاصرون داخل مدينتهم ٠ ان قراءة متمعنه لهذه المرثية تبين بوضوح صورة المقاومة والحماس والارادة والتصميم في دفع الغزو والتخلص منه ، كما تعكس تلك العلاقة الصحيحة وذلك الحب من جانب الاهالي لمدينتهم ، فقد

جاء فيها :

ايتها المدينة ذات الاسم الشهير لقد هدموك
ايتها المدينة ذات الاسوار العالية قد ابيدت ارضك
انكش – لوكال بيت مليكي قلعوه من دون ان يتركوا
لـه أثـراً مثلما تقلع الخيمة من مكان الحصاد
والدماء قد اريقت مثلما ينصب النحاس المنصهر(٢٢)

والمهم فان هذا الغزو لم يثن من عزيمة العراقيين ، اهالي العاصمة اور ، اذ اسهمت مدينة الوركـــاء بثورة كبيرة مظفرة بقيادة اوتوحيكال الملك السومري الذي اخذ على نفسه مهمة دفع الغزاة ومحاربتهـم ، فـكان النصر والقضاء على آخر ملك من ملوك الكوتيين [تريقان] فعادت مدينة أور لتكون عاصمة مرة اخرى لسلالة أور الثالثة(٢٣) .

وواجهت المدينة العراقية العريقة الاخرى بابل ، تلك المدينة التي ذاع صيتها حتى صار اسمها يشير الى تسمية عامة للعراق القديم Babylonia ؛ وان ما بقي مـن اثارها المادية فى الوقت الحاضر يعكس بجـــلاء ضخامة الحضارة البابلية وفعاليتها في فن البناء والطرز المعمارية والتنسيق الفني لخططها علاوة على ما اشتملت عليه المدينة من حركة علمية ونشاط وازدهار تجاري واقتصادي . لقـد اكتسبت بابل هذه الشهرة لكونها عاصمة لامبراطـورية مترامية الاطراف اخذ ملوكها على عاتقهم مسؤولية تحرير الكثير من الاجزاء التى كان الاجانب يسيطرون عليها . من

هنا فقد توجهت اطماع الاقوام الفارسية نحوها فشنوا الحملات العسكرية محاولة منهم في احتلالها وضمها الى مناطق نفوذهم ؛ بالرغم من انهم ، اي الاخمينين ، قد انتفعوا كثيرا من عطاءات المدينة بابل ومن الحضارة البابلية • لقد اهتبل الاخمينيون بقيادة ملكهم كورش الكبير الظروف السياسية والاجتماعية الداخلية السيئة في مدينة بابل والعراق لتحقيق مآربهم • وكان هذا الملك ، منذ بداية تسنمه السلطة ، طموحا واسع الخيال واتسعت احلامه التوسعية بعد أن صار ملكا على بلاد فارس والماذيين ان يمد نفوذه السياسي الى بلاد الهند شرقا وبحر ايجه غربا والبحر العربي جنوبا (٢٤) •

وقد اغاضت كورش الكبير الاصلاحات التي قام بها الملك البابلي نبونهيد [اونابونيد] ، ، وهي اصلاحات دينية وسياسية واجتماعية كانت ابعادها ، كما يعتقد مؤرخو التاريخ القديم ، قومية • لذلك دخل كورش في محالفات سياسية مع اليهود الموجودين في بابل لتحقيق مآربه ، فشن هجوما واسعا على المدينة بين شهر ايلول وتشرين الاول من سنة ٥٣٩ ق • م ، وعبر نهر الجندز [نهر ديالى] ، كان عبوره في المرة الاولى فاشلا وقد عزي الى عدم معرفته باحوال نهر ديالى ، غير انه ربما أيضا يعود الى ما واجهه من مقاومة عنيدة ، لذلك قام بمحاولة جديدة • عمل من اجل تأمين الوصول ، خنادق عديدة

بهدف تحويل مجرى النهر . وبعد ان امضى فصل الصيف في اكمال هذه الخطة الاستراتيجية هاجم اسوار المدينة ، وقد تحصن اهل بابل خلف اسوار المدينة الحصينة

وقاوموا الهجوم . وبعد حصار قصير تمكنت جيوش كورش بمساعدة داخلية من اليهود من دخول المدينة(٢٥) واحتلالها .

لكن المدينة واهلها لم يذعنوا لسطوة كورش واحتلاله اذ ظلوا يتربصون الفرص لطرده ومقاومة الجيش الغازي . اذ تشير الدلائل التاريخية الكثيرة الى انه بعد موت كورش

وفي عهد دارا الاول اعلن العراقيون ثورة عارمة بقيادة زعيم قيل انه ينتمي الى الملك نبونهيد ، واعلن نفسه . ملكا على بابل . ولقد دفعت هذه الثورة دارا الى ان يشن

هجوما على المدينة وفرض عليها الحصار ، لكن وحسبما اورد هيرودتس المؤرخ اليوناني ، جوبه بمقاومة باسلة استمرت حولين . كان الحصار شديدا لم يقو الاهالي

بالرغم من تضحياتهم على صد الغزو فاستطاع دارا دخولها واحتلالها في كانون الثاني ـ شباط ٥٢١ ق . م . ورافق احتلاله للمدينة فرض صنوف من الاذى والتعسف والحقد على اهالي المدينة حتى قيل انه قتل زهاء ثلاثة الاف من اهالي المدينة (٢٦) .

ومع ذلك فان مدينة بابل لم تستسلم ولم تذعن نهائيا لسطوة دارا وجبروته اذ تجمع الاهالي زمن الملك احشويرش الاول فتزعموا ثورة كبيرة تهدف الى طرد الغزاة هنا ايضا عبر احشويرش عن حقده وكراهيته لاهالي المدينة والمدينة ذاتها فقام بتخريب معالمها الحضارية ومعابدها وحصونها ونهب كنوزها وتراثها ومن ابرزها تمثال الاله مردوخ النفيس ، كذلك خرب معبد اساكلا وزقورته(٢٧) ٠



تبرز نماذج المدن العراقية القديمة التي وقفنا عليها في الصفحات السابقة صورا من المقاومة لتحديات الغزو السياسي والعسكري الاجنبي ، الغزو الذي كان ، كما اتضح ، مدفوعا بدوافع الحقد الحضاري لما وصلت اليه تلك المدن من مكانة بارزة في مضمار التقدم والرقي الحضاري ٠ والواقع ان دوافع الحقد الحضاري الاجنبي على المعطاءات الحضارية العربية المتمثلة بالمدينة كانت عامة ، اذ تعرضت مدن الجزيرة الفراتية القديمة ومدن مصر ومدن اليمن الى تحديات الغزو السياسي والعسكري ٠ غير انه بالامكان الاستنتاج بان ما جابهته المدن العراقية

القديمة والاسلامية والحديثة من تحديات الغزو العسكري أكثر مما واجهته مدن عربية اخرى في اجزاء اخرى من الوطن العربي ، ومن المحتمل ان اسباب ذلك يعود الى الآتي :

أ ـ التجاوز الجغرافي والسياسي لمدن العراق مع منطقة الشرق الواسعة ، التي كانت مهدا مستمرا لتدفق الهجرات القبلية البربرية ابتداءً من اواسط آسيا الى الهضبة الايرانية • ووفقا لمنطوق الهجرة الحضارية فان هذه الموجات المستمرة من القبائل البدوية كانت تتجه صوب المناطق التي اتسمت بطابع الاستقرار الحضاري • ولذلك صارت مدن العراق وجها لوجه ازاء تحدي الموجات القبلية البدوية •

ب ـ التقدم الحضاري الذي شهدته المجتمعات العراقية القديمة المستقرة ، وتقدم ظهور وتطور سلالات وتكوينات سياسيه متمركزة في المدن والحواضر القديمة ، في المقابل كانت الموجات البدوية القادمة من الاطراف الشرقية

لآسيا وهضبة ايران لا تمتلك مثل هذه المقومات الحضارية . لهذا نما شعور الحقد الحضاري على الرغم من ان الهجرات البدوية عموما ابتداءً بالكوتيين والعيلاميين الى

الاخمينيين قد اقتبسوا الكثير من المفردات الحضارية العراقية في فن السياسة وفن البناء والكتابة والادارة[٢٨] وغير ذلك . وعلى

هذا الاساس تحملت مدن العراق القديم اكثر من غيرها اثار هذه العلاقات الحضارية غير المتكافئة .

٣ ـ الاطماع السياسية التوسعية : ان ذلك كان من الخطط الاساسية للتوسعات القبلية البدوية ، اذ

امتدت اطماع بعض زعماء هذه القوى القبلية الى ابعد من العراق، كما يرى المرء على سبيل المثال اطماع كورش وابنه قمبيز ودارا والساسانيين وتوسعات الاسكندر الكبير ومن اعقبه على الشام ومصر وتوسعات الاحباش .

غير انه في مجال الحديث عن المدن العراقية القديمة فانه لم يكن هناك من مانع امام تحقيق هذه الاطماع السياسية غير المدن والدول القديمة في وادي الرافدين .

لذلك كانت مواجهة بصورة مباشرة لزحف القبائل البدوية ، وكانت عرضة بشكل مستمر لتحديات الغزو العسكري والسياسي ٠

لذلك كله فان وقوف المدن العراقية القديمة بوجه الزحف القبلي القادم من الشرق ، هو في حقيقته انموذج لمقاومة المدن العربية عامة ٠ فالمعروف ان احتلال كورش الكبير لمدينة بابل مثلا قد اعقبه زحف نحو مدن عربية اخرى اذ تعرضت مدن بلاد الشام ومدن مصرية كمدينة طيبة لحملاته العسكرية ، كما ان انحلال الاوضاع السياسية في العراق ابان الاحتلال البارثي والساساني قد اثر بصورة مباشرة على وضعية مدينة تدمر التي اشتهر اسمها باسم دولة تدمر في اواسط الجزيرة الفراتية ، اذ قامت مدينة تدمر (بالميرا) على اسس تجارية كونها محطة تجارية في طريق القوافل البرية ٠ وبالفعل فقد واجهت تدمر حملة عسكرية قادها سابور الاول ، وقف اهاليها بشدة ضد هذا الغزو ، غير انه استطاع ان يسيطر عليها ويضمها الى مناطق نفوذه ثم توجه بعد ذلك الى مدينة انطاكية التي هي الاخرى قاومت زحفه لكنها وقعت تحت سيطرته(٢٩) ٠

ان الرأي السابق ، بطبيعة الحال ، لا يعني ان المدن العربية الاخرى لم تجابه تحديات الغزو السياسي والعسكري الاجنبي لان عدة مدن عربية قد تعرضت الى

عدة محاولات واعتداءات . كانت تلك المدن تشكل النواة المركزية الادارية لدول عربية من أمثال ، مارب عاصمة الدولة السبأية ، وتدمر والبتراء في الجزيرة الفراتية وبلاد الشام ، ومعين عاصمة الدولة الحميرية ، ومدن عدن ومخا وغيرها من مدن الحميريين ومدينة مكة .

جميع هذه المدن واجهت تحديات الغزو العسكري الاجنبي ببسالة ، وهي مدن اشتهرت باسهاماتها الحضارية اذ تميز بعضها كمحطات تجارية في طريق القوافل البرية والبعض الاخر كموانيء تجارية في طريق السفن التجارية البحرية عبر البحر الاحمر . والاهم من ذلك فان جميع هذه المدن قد شهدت تطورا ملموسا على صعيد التنظيم السياسي الداخلي والتنظيم الاجتماعي فضلا عن ما خلفته من انجازات عمرانية ملموسة يشهدها تاريخ العرب قبل الاسلام ومازال بعضها ماثلا للعيان كالسدود والقصور والنقوش والكتابات كما هو الحال في البتراء عاصمة الانباط وتدمر ومدن اليمن . كما هو متوقع فقد توجهت انظار واطماع الغزاة الاجانب نحو هذه المدن الغنية فكانت حملة اليوس كاليوس في سنة ٢٤ ق . م او ٢٥ ق. م على مدينة مارب ومدن يمانية اخرى انموذجا لمثل هذا التحدي العسكري ، اذ اندفع جيش روماني قوي بتشجيع من الامبراطور الروماني فاحتل عدة مدن يمانية كانت تقع على الطريق الذي سلكه نحو اليمن مثل مدينة نسا والبيضاء ومارب وكان الهدف الرئيس من وراء هذه الحملة

العسكرية الاجنبية الاستحواذ على منابع الثروة في اليمن السعيدة ذات الانتاج الزراعي الغني في اللبان والمر والافاويه ، وقد عرفت تلك المدن برفاهية مجتمعاتها اذ كون التجار فيها نسبة عالية ، فهي اذن بلاد غنية ومدن منتجة لها جاذبيتها في المخططات التوسعية الرومانية . لقد فشلت هذه الحملة العسكرية المنظمة ، على اية حال ، وكان العامل الاساس في احباطها وقفة اهالي المدن اليمانية بوجه الغزو العسكري فعاد اليوس كاليوس يجر اثواب الخيبة والفشل بسبب المقاومة العربية للمدن اليمانية (٣٠) .

وفي الوقت نفسه فقد فشلت عدة حملات عسكرية جردها اباطرة يونان ورومان ضد مدينة البتراء ، اذ ارسل الاسكندر الكبير حملة عسكرية لغزو المدينة الواقعة شرقي الاردن والتي عرفت باهميتها التجارية والحضارية ، غير ان عرب المدينة وقفوا موقفا حازما ازاء الحملة فافشلوها ، لان من حسن حظ المدينة انها كانت تتميز بحصانة جبلية منيعة انتفع منها الاهالي في صد العدوان . ولم تتوقف الامبراطورية الرومانية عن محاولاتها فتجهزت حملة عسكرية اخرى بقيادة بومبي لغزو البتراء واحتلالها غير ان ملك البتراء العربي الحارث الثالث ومن ورائه اهالي المدينة عملوا بجد وبسالة لصد الغزو ففشلت الحملة عسكريا .

لقد بقية مدينة البتراء العربية تقاوم الغزاة فكانت

السد المانع امام نجاح الرومان في الاستحواذ عليها الى ان جاء الامبراطور تراجان اذ افلح سنة ١٠٦م في ان يحتلها لما كانت تشهده المدينة من عوامل الضعف السياسي الداخلي (٣١) .

في مقابل ذلك واجهت مدينة تدمر ، مدينة القوافل ، تحديات سياسية عسكرية من جانب الساسانيين والرومان، اذ شن كما مر سابقا سابور الاول حملة عسكرية بقصد ارضاخ المدينة والاستحواذ عليها ، كما ان الجيوش الرومانية ابان فترة حكم الامبراطور اورليان شنت هجوما على المدينة التي كانت انذاك تحكم من قبل الملكة العربية الزباء . وعملت هذه الملكة المشهورة على تحشيد صفوف اهالي تدمر للوقوف بوجه الزحف الروماني غير ان المقاومة لم تنجح نتيجة عدم توازن الطرفين عسكريا فاستطاع اورليان السيطرة على تدمر ، ثم تركها عائداً بعد ان خلف عليها حاكما رومانيا مع حامية عسكرية ، فانتهز اهالي تدمر هذه المناسبة لطرد الغزاة فاندلعت ثورة ضد الحاكم الروماني ونجحوا في انهاء فترة الاحتلال، لكن الامبراطور اورليان جهز حملة عسكرية ثانية ضد المدينة التي وقفت باهاليها موقفا مقاوما للغزو . وفي نهاية الامر وقعت بايدي اورليان الذي دخلها وعاث فيها فساداً وتدميرا ونهبا (٣٢) .

كذلك فان مدنا عربية اخرى امثال مخا ميناء الدولة

الحميرية ومكة مدينة العرب المقدسة قد تعرضت الى هجمات الغزاة الاجانب اذ شن الاحباش عـدة حمـلات عسكرية على اليمن وافلحوا في دخلول مدينة مخا وتدمير معالمها . لكن اهالي اليمن وقفوا صفا متراصا ضد الغزو الحبشي فأفشلوا هذه الحملة ، وهي حملة الاحباش الاولى . ولم تمض ثلاثون سنة تقريبا حتى عاود الاحباش محاولتهم الاخرى في فرض سيطرتهم على مدن اليمن فجردوا حملة بقيادة ارياط ضمت بين صفوفها ابرهة الحبشي . لقـد اظهرت مدن اليمن مقاومة قوية ضد هذا الغزو ، لكنهـا خضعت من جديد لاحتلال الاحباش ومع هذا فان هـذا الاحتلال لم يثن اهالي ظفار والمدن الاخرى في تكثيـف الجهود لزعزعة النفوذ الحبشي فـكانت هـذه المعارضـة والمقاومة للاحتلال قد اتخـذت اشـكالا عـدة ، وتكللت نجاحاتها بطرد المحتلين مرة اخرى(٣٣) .

في فترة الاحتلال الحبشي لمدن اليمن امتدت اطمـاع الاحباش الى مدينة مكة وذلك لعدة اسـباب منها المباشر والاخر المهم هو غير المباشر الذي يعكس فكرة الاطمـاع التوسعية ، اذ لعبت العوامل الدينية والسياسية والاهم من هذا الاقتصادية والتجارية في دفع ابرهة الحبشي الى تجريد حملة عسكرية ضد مكة التي لم تثمر ولاقت فشلا ذريعـا (٣٤) .

ب - مدن عربية اسلامية

لقد كان من بين اهم المظاهر الحضارية التي رافقت حركات التحرير العربية شرق الجزيرة العربية وشمالها وغربها تأسيس الحواضر والمدن ٠ ذلك المظهر الذي يعكس بحق ان العرب ، على عكس ما افترضه هنري بيرنيه واخرون(٣٥) ، لم يعملوا اثناء الفتوحات على هدم الحضارة والمعالم العمرانية والمقومات الحضارية الانسانية انما اسهموا بواقعية في انعاش الاحوال الحضارية واعادة تعمير ما تهدم في المناطق التي حرروها ٠ فكانت حملات عسكرية ناجحة وفي الوقت ذاته عبرت عن اهتمام متزايد من قبل الخلافة العربية والقادة والولاة العرب في تطوير تلك المناطق والمراكز الحضرية التي وصلت اليها الجيوش العربية ٠ ولم يكتفوا بالاضافات العمرانية التي اضافوها في كل مدينة او حاضرة وقعت بأيديهم او التي حررت من قبلهم انما عملوا على تاسيس حواضر وامصار جديدة تماما صارت بمرور الزمن من المدن العربية ذائعة الصيت كالبصرة والكوفة والموصل والفسطاط والقيروان ٠ والاهم من ذلك ان عملية التعمير والبناء والتجديد التي اقدم عليها العرب لم تتوقف بتوقف الفتوحات واستقرار العرب بعد حركات التحرير العربية ، فقد اهتم المسؤولون من خلفاء وولاة بهذا الجانب العمراني الحضاري فشهد العالم

الاسلامي نهضة عمرانية مدهشة تاسست على أثرها مدن اكتسبت شهرة محلية وعالمية منها مدن ادارية وسياسية كمدينة واسط ومنها مدن قامت بوظيفة العاصمة كمدينة بغداد وتونس والقاهرة ومنها مدن شخصية تاسست لعوامل جغرافية وصحية وفنية جمالية كمدن رقادة بالقرب من القيروان والزهراء والزاهرة بالاندلس بالقرب من مدينة قرطبة ومنها مدن بنيت لاسباب سياسية دفاعية كمدينة القطائع بالقرب من مدينة الفسطاط ومدينة المهدية القريبةمن القيروان وغيرها من المدن العربية الكثيرةالتي زخر بهاالعالم الاسلامي ، لاسيما تلك المدن التي اسست وفقا لمفهوم العرب في تاسيس المدن ، في المشرق الاسلامي في بلاد فارس كمدينة شيراز ، وفي السند كمدينة المنصورة وغير ذلك ٠

فالاسلام دين تمدني بطبعه اذ نما وترعرع في ظلال مدن مكة ويثرب اللتين لعبتا دورا دينيا واقتصاديا بارزا ، ثم انتشر وذاع بين الناس عربا او غير عرب بفضل حركات التحرير العربية التي اتخذت الامصار في بداية الامر قواعد ومراكز تقوم بوظيفة التموين والتهيؤ العسكري وفي الوقت نفسه لاستقرار المقاتلين وانخراطهم في شؤون الحياة اليومية خاصة بعد ان اكملت حركات التحرير العربية مهماتها ٠

لذلك فان عنصر المقاومة في هذه المدن العربية الجديدة كان موجودا منذ البدايات الاولى لتأسيسها

انطلاقا من نظرية ابن خلدون التي وقفنا عليها في السابق وملخصها ان العرب كانوا يراعون في اتخاذ المدن والامصار المستلزمات العسكرية والاستراتيجية . علاوة على ذلك فان هذه الامصار قد تاسست وفق منظور عمراني عربي جديد وتخطيط حضري عربي جديد وهيئة سكانية عربية قبلية جديدة . كما انها اختيرت لتكون موافقة لاستراتيجية عربية جديدة من الناحية العسكرية . اذ لم يتخذ المقاتلون العرب مثلا مدينة الابلة [ابولوغوس] التي ربما تكون مدينة اسسها اليونان أثناء حملة الاسكندر المقدوني الذي ، حسبما قيل ، انه اسسها كميناء تجاري ، او انها مدينة عراقية قديمة ترجع اصول تسميتها الى قبائل عربية او - بو - لو التي كانت تقطن جنوب العراق(٣٦)] التي كانت تقع على نهر دجلة العوراء [شط العرب] ، كما ان العرب الذين رافقوا القائد سعد بن ابي وقاص لم يتخذوا مدينة المدائن عاصمة الساسانيين ، كذلك لم يتخذوا مدينة نينوى القديمة او حتى القليمات ، ولم يتخذوا مدينة الاسكندريه في مصر ، ولم يحلوا محل الرومان في مدينة قرطاج الرومانية في المغرب العربي . لكنهم في مقابل ذلك اسسوا مدنا جديدة كالبصرة وهي ليست الابلة والكوفة والمدائن والموصل والفسطاط والاسكندرية والقيروان .

وعلى اعتبار ان العوامل العسكرية التي رافقت مسيرة حركات التحرير العربية قد لعبت دورا اساسيا في

اندفاع العرب الى اتخاذ مدن الامصار هذه ، فهي اذن مدن عسكرية خصصت في مراحل تاسيسها الاولى للمقاتلين العرب وعوائلهم · لهذا صارت خططها هي الاخرى متأثرة بهذا العامل اذ قسمت الى ارباع او اخماس او اسباع او غير ذلك بمعنى كل قبيلة عربية اختارت لها خطة خاصة بها ومن حالفها ، مع وجود المسجد الجامع ودار الامارة في وسطها تحيط بهما رحبة واسواق · كذلك فان اختيار مواضعها قد تأثر بالعامل العسكري اذ اتخذت وفقا لتخطيط الخليفة عمر بن الخطاب (رض) الاستراتيجي ـ العسكري اي انها : تقع على طرف البر وقريبة من الريف ؛ وقربها من مصادر مياه الشرب ؛ وان لا يفصلها عن المدينة مركز الخلافة ، نهر او جبل او بحر ، كذلك مراعاة اتفاقها صحيا ومناخيا ، مع الذوق العربي والعقلية العربية التي لا تحبذ اتخاذ المناطق المزدحمة الكثيرة الوخومة والرطوبة والموبوءة الكثيرة الحشرات والهوام[٢٧] · ان مدن الامصار كانت في مناطق فسيحة الرقعة طليقة لاتحدها اسوار ولا تحيطها تحصينات وخنادق · باختصار انها مدن صارت تشكل خطرا واضحا على الامبراطوريتين اللتين كانتا تسيطران على الاراضي العربية ، وبذلك اخذت تتحين الفرص للانقضاض عليها وغزوها لانها تعبر عن الواقع العسكري الناجح · صحيح ان الامبراطورية الساسانية وبعد معارك العرب الخالدة في القادسية ونهاوند وبعد تحرير المدائن، تهاوت تماما فلم تعد قائمة من

الناحية السياسية ، غير ان الامبراطورية الرومانيه والبيزنطية لم تنته بشكل نهائي ، وان تحرير العرب بلاد الشام ومصر والمغرب قد تحقق على اثر فشل العدو في مواجهة الجيوش العربية فتقهقروا عنها . لهذا ظل البيزنطيون يتحينون الفرص ويتابعون التطورات السياسية للدولة العربية لغرض شن هجمات مضادة على المدن العربية لذلك كانت مدن بلاد الشام والجزيرة الفراتية ومصر والمغرب العربي عرضة لتحديات الغزو العسكري براً وبحرا .

ومما لاريب فيه ان القادة العرب بتوجيه من الخلافة كانوا على ادراك ومعرفة تماما بهذه الاحوال الاستراتيجية، اذ كان اعتراض الخليفة الثاني (رض) والمقاتلين العرب المرافقين للقائد عمرا وبن العاص على عدم اتخاذ الاسكندرية كمدينة مصر لهم مثلا مبنيا على مبدأ الخشية من ان تقوم مراكب العدو بتطويقها من جهة نهر النيل وفرض الحصار عليها فيكون الجيش العربي المرابط فيها محصورا من ناحية النهر ،لهذا السبب ايضا عمل عمرو ابن العاص بعد اختياره موقع الفسطاط على وضع مرصد عسكري يرابط فيه مجموعة من المقاتلين العرب في الجهة المقابلة لمدينة الفسطاط عبر نهر النيل في مدينة الجيزة ليصبحوا على علم بتحركات اسطول العدو[٢٨] . في الوقت نفسه فان القائد عقبة بن نافع وحسان بن نعمان الغساني كانا مدركين تمام الادراك لهيمنة البيزنطيين البحرية في

البحر المتوسط عندما اختارا مواضع القيروان وتونس . فقد استشار عقبة بن نافع اصحابه في موقع لمدينته وكانت مسألة ضرورة الابتعاد عن ساحل البحر موجودة في أذهانهم خشية ان تشن اساطيل العدو هجوما بحريا من الخلف او يفرضوا حصارا على الجيوش العربية ، كما ان عقبة وصحبه كانوا حذرين ايضا من تحركات البربر من جبال اوراس . الحالة نفسها تكررت في اتخاذ مدينة تونس [٣٩] .

وقد اثبتت النتائج التاريخية واقعية التفكير الاستراتيجي العسكري للعرب ومراعاة ابتعادهم عن خطر الغزو ، اذ تعرضت مدن مصر اثناء الحملات الصليبية الى غزو بحري نهري قامت به اساطيل البيزنطيين ضد مدينة الاسكندرية ومدن اخرى ، ولهذا السبب فقط اقدم الوزير شاور السعدي وزير الخليفة الفاطمي ، العاضد ، بحرق مدينة الفسطاط في سنة ٥٦٤/١١٦٨ خوفا من ان تكون لقمة سهلة امام تقدم الاسطول الصليبي[٤٠] . فقد اضرم النار في مساكنها ومحلاتها واستمر الحريق مندلعا في المدينة عدة ايام[٤١] . كذلك الحال عندما امر الحسن بن يحيى بن تميم بن المعز بن باديس الصنهاجي في سنة ٥٤٣هـ/١١٤٨ باخلاء مدينة المهدية اثناء الهجوم البحري الذي شنته اساطيل صاحب جزيرة صقلية على المدينة . ولم تثمر مقاومة الصنهاجيين القوية لتحدي اساطيل العقيليين ، اذ استطاع العدو غزو المدينة

والسيطرة عليها مدة اثنتى عشرة سنة . ولم يستسلم اهالي المدينة لهذا الاحتلال اذ كانوا يتحينون الفرص لطرد المحتلين الاجانب ، وبالفعل فقد نجح عبدالمؤمن زعيم الموحدين في تحشيد طاقات الاهالي وحارب الصقليين وافلح في طردهم من المدينة سنة ٥٥٥هـ / ١١٦٠م واعادة المدينة الى الحكم العربي(٤٢) .

وتحققت رؤية العرب الاستراتيجية المستقبلية ازاء اخطار الغزو الساحلي في حالة مدينة تونس اذ تعرضت هي الاخرى الى غزو بيزنطي بحري سنة ٥٤٣/١١٤٨ عندما جرد الاوربيون حملة بحرية ضد سواحل المدينة ، وبعد مقاومة باسلة لاساطيل العدو افلح الاوربيون في غزوها ودخولها ، ونهب بعض ثغورها . ظلت مدينة تونس تابعة للاحتلال النورماندي هذا الى ان استطاع أمير دولة الموحدين عبدالمؤمن الزناتي من توجيه جيش قوي يناصره اهالي المدينة ضد النورمانديين سنة ٥٥٤هـ/١١٥٩ . وكان هجومه قويا لم يصمد امامه المعتدون مما اضطرهم الى ترك المدينة(٤٣) .

من الجانب الاخر فان المقاتلين العرب بعد ان نجحوا في تحرير بلاد الشام من السيطرة الرومانية ، واستقبال اهالي مدن المنطقة العرب بالترحيب اعادوا تعمير ما تخرب من المدن ، واضافة وحدات عمرانية جديدة تتفق وخطط العرب العمرانية كالمسجد الجامع ودار الامارة والاسواق

وتخطيط المحلات · ان العرب هنـــا لم يؤسسوا امصاراً جديدة ، كما هو الحال في العراق ومصر والمغرب العربي . ولعل السبب في ذلك وجود مدن قائمة تتفـــق والخطط العسكرية ، وكذلك لان فلسفة اتخاذ الامصار عسكريا ان تكون على طرف البر وقريبة من الريف وهي لاتنطبق تماما في هذا الجزء من الوطن العربي ، لذلك ابقى العرب على مدن المنطقة القديمة كدمشق وحلب وحما وحمص وبيت المقدس وقنسرين وغيرها العديد من مدن بلاد الشام ·

ان خروج البيزنطيين عن هذه المنطقة جراء حركات التحرير العربية لم ينه اطماعهم ومخططاتهم التوسعية في العودة الى بلاد الشام ، وذلك لاهمية بلاد الشـــام في السياسة الخارجية اليونانية والرومانية ، فضلا عن اهميتها الكبيرة في الامور التجارية والاقتصادية · وقد بقيـــت المنطقة تشكل اهمية استراتيجية في نظـــر البيزنطيين . لذلك واجهت مدن بلاد الشام سلسلة مستمرة من تحديات الغزو البيزنطي والصليبي ، لا سيما عندما كانت الاحوال السياسية الداخلية للمنطقة تشهد اضطرابا وارتباطا . وكانت معاناة اهالي مدن بلاد الشام كبيرة ، اذ تعرضت مدينة حلب وانطاكية ، ومن مدن الجزيرة الفراتية نصيبين وغيرها الى عدة حملات عسكرية بيزنطية · كانت مدينـــة حلب ابان نفوذ الامارة الحمدانية العربية في آمان ومنعة لما ابداه امراء هذه الامارة من مقدرة وكفاية في مواجهـــة

الحملات البيزنطية ، غير ان المدينة قاست كثيرا من هجوم بيزنطي حدث سنة ٣٥١هـ/٩٦٢ ٠ لقد امتازت مدينة حلب برخاء اقتصادي تجاري ووصفت من قبل الجغرافيين العرب بكثرة خيراتها ، كما تميزت بموقعها الجغرافي والعسكري لوجود قلعتها الشهيرة ٠ وكان اهالي المدينة مشهورين بمقاومتهم الغزو منذ تاريخ تأسيسها القديم جدا ، وكانوا حينما تشتد وطأة الغزو يلجأون الى القلعة الحصينة التي اشتهرت بانتاجاتها الذاتية التي تزود المحتمين بها بالمستلزمات الضرورية لادامة مقاومتهم واحباط مخططات الاستحواذ على مدينتهم ٠ لكن المدينة ، وبسبب اهميتها صارت مطمح انظار الطامعين فشن عليها القرامطة هجوما في سنة ٢٩٠هـ / ٩٠٢ عانى الاهالي كثيراً من نتائجه ٠ اما البيزنطيون ، فيحدثنا ابن حوقل الذي عاصر الفترة بانهم استغلوا سوء الاوضاع الداخلية للحمدانيين ، وانشغالهم في الدفاع عن اجزاء اخرى من البلاد فضلا عن تركيز سيف الدولة الحمداني انذاك في مساندة الخلافة العربية ضد الغزو البويهي الديلمي على بغداد ٠ ولم تفلح مقاومة اهالي المدينة واحتمائهم بالقلعة ، فوقعت بايدي البيزنطيين (٤٤) الذين تسببوا بقتل الكثير من اهلها وفرضهم الجزية على كل صاحب دار وحانوت ٠ لكن هذا الغزو لم يستمر طويلا اذ افلح الاهالي بطرد الغزاة وتحرير المدينة من احتلالهم ٠ كما تعرضت مدينة انطاكية الى غزو

بيزنطي في سنة ٣٥٩هـ/٩٦٩م بعد ان فرضوا حصارا شديداً على سور المدينة(٤٥) .

لقد تحملت مدن وامصار العراق العسكرية ، البصرة والكوفة وواسط والموصل ، مسؤولية كبيرة في حركات التحرير العربية لاسيما بعد تحرير مدينة الابلة سنة ١٤هـ ٦٣٥م بالنسبة الى البصرة ، وبعد انتصار العرب الرائع في القادسية وتحرير المدائن بالنسبة الى جبهة الكوفة • اذ انسابت الجيوش العربية صوب الشرق محققة انجازات عسكرية مذهلة سقطت ، على أثر معارك كثيرة ، اقاليم ومدن ورساتيق كثيرة في ايدي العرب في الاحواز وكرمان وبلاد فارس وخراسان وسجستان والهند والسند وطبرستان واذربيجان وما وراء النهر في مدن سمرقند وبخارى وارمينية وبلاد الديلم والجيل ، فصارت كل من البصرة والكوفة تشرف على جبهة عسكرية ـ ادارية واسعة من بلاد المشرق • وانطلاقا من الوظيفة الاساسية لهذه الامصار فانها بقيت مفتوحة لتدفق العرب المقاتلين ولم تبن لها اسوار وتحصينات ، كما انها (الامصار) بقيت على اتصال ميسور بالجزيرة العربية وبمركز الخلافة العربية .

غير ان مدينة البصرة وجدت نفسها بمرور ، الزمن وبعد استقرار العمليات العسكرية ، امام تحديات الغزو

العسكري والسياسي المعاكس من الجهة الشرقية التي اسهمت المدينة ومقاتلوها العرب كثيرا جدا في اطار تحريرها . ايضا فان المدينة واجهت تحديات عسكرية من بعض القوى المجاورة المحيطة بها . من هنا دأب مسؤولو ادارة المدينة ، والخلافة العباسية العربية على ضرورة مراعاة الحيطة في دفع مضار الغزو عن المدينة ، اذ لم يكن من الحكمة ، ازاء هذه التطورات ، ان تبقى المدينة مفتوحة كما كانت في بداية تأسيسها . ولعل هناك عدة عوامل اهابت بالخليفة العباسي المنصور الى ان يوجه اوامره ببناء سور للمدينة في سنة (٤٦) ١٥٥هـ/٧٧١م منها :

أ ـ صارت البصرة ، منذ الفترة الاموية ، هدفا امام هجمات الخوارج الذين أثاروا الاضطراب في احوال المدينة الداخلية وكانت المدينة مواجهة لتحركاتهم نظرا لانفتاحها من جهة البادية .

ب ـ حركة ابراهيم سنة ١٤٥هـ/٧٦٢م قد شكلت خطورة سياسية امام المنصور ، لاسيما بعد ان لاقت نجاحا في الوهلة الاولى في المدينة .

ج ـ تفكير الخليفة المنصور السليم النابع من نظريته التي طبقها في سنة ١٤٥هـ بالنسبة الى تحصين المدينة المدورة وتسويرها .

ولعل من الصحيح القول بان سور المدينة وخندقها قد عملا لصد الغزوات القادمة من الجهة البرية ، البادية . وبالفعل فقد استطاعت هذه التحصينات ان تصد أول تحد في الغزو العسكري من جهة قرامطة البحرين . اذ طمع هؤلاء منذ بداية ظهورهم في السيطرة على المدينة وغزوها ، وقد عمل والي المدينة ، لتفادي خطر القرامطة . في سنة ٢٨٦هـ/٨٩٩م على تجديد بناء السور القديم . ومع ان الروايات التاريخية قد ابانت على ان لهذا السور مدخلا واحداً ، وبانه كان مبنيا من اللبن لكنه صمد امام تحديات الغزو القرمطي . ومع ذلك فان سلسلة هجمات القرامطة المتعددة على المدينة ، جعلت الاهالي يحتاطون كثيراً ، فقد شن هؤلاء هجوما ليليا مباغتا في سنة ٣١١هـ/٩٢٣ بجيش تراوحت اعداد المساهمين فيه بين ١٧٠٠ الى ٢٧٠٠ رجل . وقد استطاعوا دخول المدينة بعد ان تسلق عدد منهم السور وفتح بوابة المدينة . وقد خضعت المدينة واهاليها لسيطرة القرامطة المريرة مدة احدعشر يوما ، عمل فيها هؤلاء انواعا من الهدم والتخريب والقتل . ومع ذلك فان اهالي المدينة وقفوا بصمود ازاء هذا الاحتلال وافلحوا بعد وصول الامدادات العسكرية من السلطة المركزية على اجبار القرامطة على الانسحاب(٤٧) .

ويبدو ان سور المدينة لم يمنع الزنج الذين ظهروا في منطقة البصرة قبل ذلك من دخول المدينة ، وعلى الارجح

ان الزنج ركزوا في هجومهم على المدينة من الجانب الشرقي المطل على نهر شط العرب · ومع ذلك فان احتلال الزنج لم يمر بسلام اذ يحدثنا الطبري عن وقوف اهالي المدينة وراء اشراف المدينة ووجهائها ضد الغزو ، لذلك لم يفلح الزنج في الاحتفاظ بسيطرتهم واحتلالهم للمدينة(٤٨) ·

جاء التحدي الخطير الذي واجهته مدينة البصرة ومدن العراق الاخرى من الجهة الشرقية · تلك المنطقة التي سبق ان هددت مدن العراق القديم ، اور وبابل · لقد كانت منطقة بحر قزوين وعلى وجه التحديد بلاد الديلم والجيل مصدر هذا الخطر اذ ظهرت في هذه المنطقة تكوينات قبلية ديلمية ليس لها من مقومات التقدم والحضارة شيء يذكر عدا كونها قبائل تنزع الى الحرب والتوسع على حساب سيادة الخلافة العباسية · وبالفعل فان احد زعماء هذه التكوينات السياسية وهو مرداويج بن زيار كان قد ضمن مخططه التوسعي الوصول الى مدينة بغداد وتدميرها واعادة امجاد مدينة المدائن عاصمة الساسانيين(٤٩) ·

كانت مدينة البصرة ، بالنظر الى قربها من الاحواز ، وجها لوجه امام تحدي الزحف البويهي الديلمي · ومن حسن حظ المدينة انها كانت تابعة لنفوذ البريديين الذين كانوا يمتلكون جيشا قويا متعدد العناصر · وقد افلح ابو عبدالله البريدي كبير الاخوان البريديين الثلاثة في صد

التقدم البويهي · اذ كان البويهيون في الاحواز ينتهزون فرصة التوجه نحو بغداد · ولعله من الصحيح ان نقول ان البريديين استطاعوا ان يؤخروا الغزو البويهي من سنة ٣٢٥هـ/٩٣٧م حتى سنة ٣٣٤هـ/٩٤٥م ·

وما ان تحققت مآرب البويهيين التوسعية في دخول بغداد عسكريا وتسلطهم على الخلافة العباسية سنة ٣٣٤هـ حتى اخذ احمد بن بويه [معز الدولة] يخطط لاحتلال مدينة البصرة ، فجهز جيشا في سنة ٩٤٧/٣٣٦ · بمحورين البري والنهري ، وفرض حصارا على المدينة ، وبعد مقاومة ابداها البريديون واهالي البصرة وقعت المدينة في ايدي معز الدولة · ويبدو ان الاوضاع الداخلية في المدينة لم تستقر منذئذ اذ يشير مسكويه في «تجارب الامم» ان حبشي ابن معز الدولة الذي كان حاكما على البصرة قد عامل الاهالي معاملة سيئة وفي هذه الفترة من الاحتلال نمت نهضة عربية جديدة ببروز دور القبائل العربية البلالية والسعدية في المجتمع البصري ، وهما يعودان نسبا الى ربيعة ومضر · ويبدو انهما اقلقتا البويهيين وعملتا على اضعاف نفوذهم وتفتيت وحدتهم بتأييدهم جانبا من الامراء المتنازعين دون الاخر كما وقع سنة ٣٦٦هـ/٩٧٦ أثناء النزاع بين بختيار بن معز الدولة وبين عضد الدولة · كذلك في سنة ٣٧٥هـ/٩٨٢ أثناء النزاع بين شرف الدولة وابي طاهر · كذلك هناك عدة استشهادات تشير الى ان الاهالي كانوا يقاومون الاجراءات التعسفية التي كان

يمارسها البويهيون او نوابهم وكانوا يقفـــون باستنكار ضد اجراءات فرض الضرائب الجديدة(٥٠) .

وكما واجهت عاصمة البابليين العظيمة بابل تحديات الغزو العسكري والسياسي الاجنبي فان بغداد ، مدينـــة السلام وعاصمة العباسيين ، هي الاخرى قد تعرضـــت لهجمات وغزوات الاجانب خاصة الاقوام القادمة من المشرق الاسلامي . فلقد خططت الشعوبية السياسية بعد مقتل ابي مسلم الخراساني للتمرد ضد السلطة العربيـــة منـــذ وقت مبكر من تاريخ الدولة العباسية ، وكانت اجـــراءات الخليفة العباسي المنصور الذكية ومن اعقبه من الخلفـــاء رادعا قويا احبط مخطط هذه الحركات في تنفيذ مآربهـــا ضد العاصمة .

كان الخليفة ابو جعفر المنصور مدركـــا خصـــائص الموضع الذي سعى لتحديده كي يبني مدينته المدورة . وقد خضعت مدينة السلام ، على هذا الاساس ، لجملة مؤثرات وعوامل لاتتشابه مع تلك التي خضعت اليهـــا الامصـــار الاسلامية ، البصرة والكوفة . وذلك لاستقرار حركـــات التحرير العربية نهائيا ، كذلك لان ظـــروف وتطـــورات وتطلعات القرن الثاني للهجرة من النواحي السياســـية والادارية والاقتصادية والعسكرية قد اختلفت كثيرا عن ما شهده الربع الاول من القرن الاول للهجرة . لقد رغب المنصور من وراء تأسيسه بغداد تحقيق عدة أمور واعتمادا على ما ذكره الجغرافيون والمؤرخون العرب منها :

أ ـ ارادها ان تقوم بوظيفة العاصمة الجديدة للدولة العباسية وان تلبي لذلك ما يطمح اليه من من الناحية السياسية المركزية ٠

ب ـ ان تكون مدينة محصنة تحصينا متينا ٠ فاحاطها بسورين وخندق ونصب فوق الاسوار الابراج ، وحدد الدخول اليها من اربعة ابواب ضخمة ٠ لهذا فانها لم تكن مدينة مفتوحة او طلقة انها مدينة محدودة ومحددة ٠ ولهذا بعد عسكري دفاعي ، ربما ايضا احد الاهداف التي اراد تحقيقها ٠ وزيادة في الحيطة العسكرية فانه وضع نصب عينيه على مسألة ستراتيجية في صعوبة الوصول اليها ، لوجود الانهار والقنوات ٠ واعتمادا على رأي الدهقان الذي كان من اهل الموضع والذي استشاره المنصور حول خصائص الموضع قال هذا « وانت يا امير المؤمنين بين انهار لايصل اليك عدوك الا على جسر او قنطرة فاذا قطعت الجسر واخربت القناطر لم يصل اليك ، وانت بين دجلة والفرات لايجيئك احد من المشرق والمغرب الا احتاج الى العبور ٠» (٥١)

اذن فان عنصر امكانية المدينة في مقاومة الغزاة كانت موجودة في ذهن الخليفة ٠

٣ ـ انه اراد ان تكون مكتفية ذاتيا من الناحية

الاقتصادية ، وهو عامل رافق فكرة حصانتها ومناعتها وصعوبة الوصول اليها ، الامر الذي يؤهلها للوقوف بوجه الغزوات . وقد تجلت هذه الناحية فى الملاحظة التي ابداها المنصور اذ قال « هذه دجلة ليس بيننا وبين الصين شيء يأتينا منها كل ما في البحر وتأتينا الميرة من الجزيرة وارمينية وما حول ذلك وهذا الفرات يجيء فيه كل شيء من الشام والرقة وماحول ذلك[٥٢] » وقال ايضا في نفس المناسبة ان الموضع قد « اجتمع فيه ما اريد من طيب الليل والموافقة مع احتماله الجند والناس[٥٣] ».

والواقع فان المتتبع لتاريخ مدينة بغداد المدورة سيرى مدى واقعية نظرية المنصور ، ومدى عمليتها ، فلم يحدث ان تعرضت لتحديات الغزو العسكري . غير ان هذه الوضعية لم تستمر طويلا اذ توسعت مدينة بغداد وخرجت من حدودها الضيقة الى مناطق مفتوحة كالكرخ والرصافة . فصارت حينئذ عرضة لتحديات الغزو العسكري الداخلي والاجنبي ، غير ان اخطر هذه التحديات ذلك المتمثل بالغزو البويهي الديلمي الذي فرض احتلالا بغيضا دام حوالي مائة واربع عشرة سنة اعقبه احتلال سلجوقي ثم مغولي .

فقد وضع البويهيون خطة عسكرية لغزو العاصمة بعد ان ثبتوا مواضعهم في الاحواز وتخلصوا من مواجهة

البريديين . فاتجهوا نحو واسط ثم العاصمة . ومع ان الظـروف والملابسات التي كانت انذاك بما جعلت مسألة الاحتلال امراً سهلاً لكن ما اعقب ذلك من تطورات ونتائج تؤكد العكس ، وان وضع البويهيين كان صعبا وان المدينة لم تستسلم نهائيا . فقد :

أ ـ بادر الحمدانيون لنجدة الخليفة فـي طـرد الغزاة ، ولولا حدوث بعض المفاجئات فـي صالح البويهيين لكان بمقدور الحمدانيين ان يظفروا في الانتصار العسكري(٥٤) ويطـردوا البويهيين من العاصمة .

ب ـ تشير الدلائل التاريخيـة الى ان الخليفـة العباسي [الذي من المحتمل انه كان في البداية مخططا للاستعانة بهم للتخلص من نفوذ أمير الامراء الاجنبي] قد عمل جاهداً منذ الوهلة الاولى على التخلص من التسـلط ، لهـذا أدرك البويهيون هذا الهدف . وتشير المصادر الى ان الخليفة المستكفي بالله وبتأييد من اهالي العاصمة والجند قد خطط فعلا بتزعم انقلاب على معز الدولة البويهي ، غير ان الحظ لـم يحالفه(٥٥) . ومع ان هذا الخليفة قد فشل في تحقيق الانتصار الا ان المصادر تبين ان الخلفاء العباسيين الذين جاءوا قد استخدموا سياسة تفريق شمل البويهيين وتفتيت قوتهم بتشجيع

احدى الفرق العسكرية [الديلم والاتراك] ضد الاخرى . وقد حققت هذه السياسة هدفها حتى صار الامراء البويهيون يتوددون اليه ويحاولون كسب تأييده ضد منافسيهم(٥٦) ، باعتبار ان الخليفة كان مدعوماً من قبل الاهالي .

ج - مقاومة اهالي العاصمة للاجراءات التعسفية التي فرضها البويهيون كفرضهم الضرائب الجائرة على الناس والتجار والصناعات المحلية . فالمعروف تاريخيا ان اهالي بغداد والمدن العراقية الاخرى قد ذاقوا الويلات من جراء الاحتلال اذ شجع البويهيون الفتن والاضطرابات والانقسامات الطائفية وبالنظر الى جهلهم بالاوضاع الاقتصادية ولجوء قادتهم من الديلم والاتراك الى احتكار المواد الغذائية الاساسية ، فقد ندرت الاقوات وازدادت اسعارها زيادة فاحشة في نفس الوقت اضطرب حبل الامن في الداخل فانفسح المجال امام اللصوص وقطاع الطرق . ومما زاد في الطين بلة ان نواب البويهيين وقواد جندهم اقدموا على مصادرة اموال الناس واملاكهم واموال التجار والموسرين من الاهالي . فما قاله مسكويه في حوادث سنة ٣٦٣هـ/٩٧٣

الملاحظة الاتية «وانتشر النظام وانخزل السلطان وظهرت العصبية[٥٧] » وهي ملاحظة تبين بجلاء اوضاع العاصمة ابان الاحتلال البويهي ، ويشير ابن الجوزي الى مسألة ارتفاع الاسعار بقوله في سنة ٣٧٣هـ/٩٨٣ ان الاسعار ارتفعت ارتفاعا فاحشا حتى بلغ كر الحنطة ثلاثة الاف درهما وزاد بعد ذلك ليصل سعره الى اربعة الاف وثمانمائة درهما الامر الذي ادى الى حصول مجاعة وموت كبير بين الفقراء[٥٨].

ولم يقف اهالي بغداد والمدن العراقية مكتوفي الايدي ازاء تردي الاوضاع الداخلية ، انما عبروا عن تذمرهم باستيائهم بشتى الاساليب الثورية منها :

أ - قيامهم بثورات داخلية وحركات اجتماعية سياسية ضد التسلط البويهي ، كما انهم كانوا يناصرون الحركات التي تهدف الى تقويض حكمهم ، ففي سنة ٣٦١هـ وسنة ٣٦٢هـ / ٩٧١ او ٩٧٢ ثار الاهالي ثورة عارمة ضد بختيار بن معز الدولة ولما يمض على احتلالهم الا حوالي اربعين سنة . وكان سبب ثورتهم تقاعس بختيار عن نصرة العرب في بلاد الشام والجزيرة الفراتية عندما تعرضت مدينة نصيبين الى غزو من قبل الروم . اذ

دخل هؤلاء المدينة ونهبوها واحرقوا المنازل وقتلوا الرجال والنساء . وتقدم هذه الرواية وصفا بديعا لهذه الثورة اذ تقول ان قوما من اهالي ديار بكر وربيعة قدموا المدينة واستنفروا المسلمين فاجتمع اهالي بغداد في المساجد والاسواق . وخرج الجميع بعد ذلك متوجهين الى دار الخليفة المطيع لله . كان بختيار البويهي انذاك في الكوفة ، فخرج اليه وجهاء بغداد وزعماؤها وعرضوا عليه مستنكرين موقفه السلبي ازاء اعمال الروم وممارساتهم واشعروه بانشغاله « عن مصالح المسلمين وانصرافه عن تدبيرهم . وتشاغله بالصيد واللهو عن جميع مهمات المملكة»(٥٩) .

ب - ومن المحتمل جدا ان تكون حركة العياريين الشعبية من بين اساليب المقاومة ضد التسلط البويهي اذ اخذت حركتهم تتنامى في الستينات في القرن الرابع الهجري حينما سادت الفوضى واتضح ضعف البويهيين(٦٠) .

ج - كما ثار اهالي بغداد سنة ٣٧٣هـ/٩٨٢ على البويهيين بسبب ارتفاع اسعار المواد الغذائية ، ويعقب ابن الجوزي على هذه الحركة بقوله « وضج الناس وكسروا منابر

الجوامع ومنعوا الصلاة في عدة جمع[٦١] ،
وثار الاهالي مرة اخرى في سنة ٣٧٥هـ/٩٨٥م
ضد اجراءات صمصام الدولة البويهي
التعسفية في فرض الضرائب على الثياب
الابريسميات والقطنيات التي كانت تنسج
في بغداد « فاجتمع الناس في جامع
المنصور وعزموا على المنع من صلاة
الجمعة ، وكاد البلد يفتتن فاعفوا من احداث
هذا الرسم »[٦٢] . كذلك ثار اهالي بغداد
على الجند الاتراك سنة ٤٢١هـ/١٠٣٠ عندما
تسبب هؤلاء بقتل احد وجهاء الهاشميين .
فاجتمع الهاشميون في جامع المدينة ورفعوا
المصاحف واستنفروا الناس وناصرهم الفقهاء
واعداد غفيرة من اهالي الكرخ فيقول ابن
الجوزي انه بعد اجتماع الناس خرجوا الى
المدينة « وضجوا بالاستغفار من الاتراك
وسبهم[٦٣] » ووقعت معركة مسلحة بين
الاهالي والاتراك استخدم فيها الآجر
والنشاب .

د ـ وقد عمل الاهالي ايضا على اتباع اسلوب التفريق
بين جنود البويهيين الذين كانوا ينقسمون
عنصريا الى الديلم والاتراك . فكانوا يقفون
الى جانب جماعة ضد أخرى بهدف اضعافهم

ففي سنة ٤٢٢هـ/١٠٣٠ حدثت معركة بين الغلمان الجند فمال اهل بغداد الى بعضهم ضد البعض الآخر فاوقعوا بهم وغنموا اسلحتهم (٦٤) ٠

هـ ـ وواجه اهالي بغداد الامراء البويهيين مواجهة صريحة معلنين عن استيائهم من ضعفهم في ضبط الامن ، فثار الناس في سنة ٤٢٤هـ/١٠٣٢م واجتمعوا في جامع الرصافة معلنين سخطهم على جلال الدولة البويهي لعدم قدرته على ضبط الامن(٦٥) في المدينة ٠

و ـ اتخذ الخليفة العباسي موقفا مؤيدا لمطاليب الاهالي في كثير من المناسبات واعتاد الجلوس للخاصة والعامة يسمع منهم الشكاوى والمظالم (٦٥ ب) ٠ لهذا فانه في سنة ٤٢٦هـ/١٠٣٤م حينما ضعف امر البويهيين وسقطت هيبتهم لاهمالهم شؤون البلاد وانصرافهم الى الى حل منازعاتهم الشخصية ، امتعض الخليفة القائم بامر الله من تصرف قام به احد جنود الامير البويهي « فأمر القضاة بالامتناع عن الحكم والفقهاء بترك الفتوى والخطباء بان لا يحضروا املاكا ولا يعقدوا عقدا وعمل على اغلاق باب الجامع ومنع الصلاة (٦٦) » ، وقد

مال الاهالي الى اجراءات الخليفة ·

كان الغزو البويهي لمدينة بغداد والمدن العراقية الاخرى حلقة في سلسلة من عمليات الغزو العسكري . وقد اعقب ذلك عدة اعتداءات وغزوات على هذه المدينة . ففي سنة ٤٤٧هـ/١٠٥٤ بعد افول حكم البويهيين تعرضت العاصمة لغزو السلاجقة ، ثم اعقب ذلك الغزو المغولي بقيادة هولاكو ، ثم الغزو المغولي بقيادة تيمورلنك ·

ومع ان الغزاة استطاعوا فرض تسلطهم على بغداد غير ان اهالي المدينة والمدن الاخرى عبروا عن مقاومتهم للمحتلين بشتى الوسائل السياسية والاجتماعية مما يطول سرده في هذا المجال وكان الاحتلال المغولي من اقسى انواع الغزو العسكري الذي تعرضت له مدن العراق ·

كان موقف الخليفة العباسي المستعصم بالله موقفا صلدا امام عنجهية هولاكو بضرورة تسليم العاصمة له دون مقاومة ، حينما بعث الى الخليفة كتابا ينذره فيه من المقاومة ويدعوه الى تدمير اسوار بغداد والمثول امامه ، تماما كما فعل نادر شاه الصفوي عندما جهز جيشا قويا لغزو بغداد ومدن كركوك والموصل والبصرة في سنوات ١٧٣٣ و١٧٤٣ لم يمتثل الخليفة العباسي لهذا الانذار اذ يشير رشيد الدين في كتابه جامع التواريخ ان الخليفة وقف بوجه العدوان موقفا حازما واصفا في رسالته الجوابية الى هولاكو بانه مغرور ، وهدده بانه اذا ما عزم الهجوم

على بغداد فان جميع الامراء المسلمين سوف يقفون الى جانبه . وهو موقف يذكرنا ايضا بموقف والي بغداد احمد باشا حينما طلب منه نادر شاه تسليم بغداد لجيشه الذي تباهى بعدده وعدته ، وموقف والي الموصل حسين باشا الجليلي من طلب احد قواد نادر شاه في شهر ايلول ١٧٤٣ بتسليم المدينة ، وموقف متسلم البصرة رستم اغا من طلب احد قادة نادر شاه حينما كان محاصرا المدينة في اب ١٧٤٣ . لقد رفض جميع هؤلاء المسؤولين رسائل الانذار التي وجهها نادر شاه وقواده واعلنوا عن تصميمهم وتصميم اهالي هذه المدن في المقاومة والدفاع عن مدنهم .

لقد واجهت بغداد هجوما عاتيا من المغول ، الهجوم الذي لم تفلح في صده اجراءات الخليفة المضادة ومقاومة اهالي المدينة ومن ايد الخليفة من الامراء . اذ صارت بغداد في ١١ محرم ٦٥٦هـ/١٢٥٨م تحت التسلط المغولي ، وعرضة لنهب المغول وسلبهم . اذ استباحوها مدة سبعة ايام(٦٧) وقيل اربعين يوما .

واذا ما فشلت مقاومة اهالي بغداد والمدن الاخرى في صد الغزو المغولي البربري ، فانها تكللت بالنجاح الكبير عندما احبطت جميع محاولات نادر شاه وقواده في التاريخ الحديث في السيطرة على العاصمة ومدن الموصل والبصرة وبالرغم من قوة الهجوم وعدد جنود الفرس الذين اسهموا فيه وبالرغم من تعرض الموصل والبصرة الى القصف المدفعي اذ اضطر المهاجمون على الانسحاب امام

مقاومة اهالي هذه المدن(٦٨) ٠

واعقب الغزو الهولاكي لبغداد غزو مغولي اخر بقيادة تيمورلنك اذ قام بمحاولتين عسكريتين لتحقيق مآربه التوسعية كانت الاولى في ٧٩٥هـ/١٣٩١ والثانية في ٨٠٣هـ/١٤٠١ ٠ لقد عرض اهالي بغداد ووجهاؤها وامراء المدن العراقية الاخرى كحاكم مندلي وحاكم بعقوبة وحاكم الحلة مقاومة عسكرية قوية ضد الغزو التيموري ، اذ جمع هؤلاء حوالي ثلاثة الاف فارس لمجابهة الغزو ، وبالفعل فان تيمورلنك واجه صعوبة في احتلال المدينة ٠

وفي نهاية الحديث عن مقاومة المدن العربية الاسلامية والحديثة لابد من ذكر الاساليب التي اعتمدها اهالي مدن العراق لمقاومة الحملات العسكرية التي اعدها نادر شاه الصفوي لغزوها واحتلالها ، ومن بين تلك الاساليب :

أ – موقف الولاة واداريي المدن العراقية الحذر والمتأهب ٠ اذ قام الوالي احمد باشا والي بغداد باتخاذ عدة اجراءات سريعة بعد وصول انذار نادر شاه ٠ فهيأ العساكر وحصن بعض المدن الحدودية ، كذلك اجرى الترميمات اللازمة على سور مدينة بغداد ، ولذلك فان مدفعية نادر شاه لم تثمر في عمل اية ثغرة فيه .

كذلك فانه أرسل ردا جوابيا لانذار نادر شاه يعرب فيه عن امكانية صمود المدينة واهلها ومقاومتهم للعدوان ومما جاء فيه انه سوف لن يسلم حجرا واحداً من احجار المدينة(٦٩) .

وقد وقف والي مدينة الموصل الجليلي واهالي المدينة وقفة رجل واحد ، اذ تنظم الاهالي تنظيما جيدا في ترميم اي ثغرة حدثت بفعل المدفعية ، كما ان الوالي اعد المقاتلين من من اهالي المدينة . وعبر تعبيرا حازماً في الرسالة الجوابية التي بعثها الى القائد جاء فيها : « اسيافنا صقيلة وسطوتنا ثقيلة .. وبلدتنا بحمدالله حصينة »(٧٠) .

وكان موقف متسلم البصرة واهالي المدينة يشابه مواقف ولاة بغداد والموصل اذ تسلم انذاراً من قائد القوات الفارسية المحاصرة للمدينة ، التي تعرضت الى قصف مدفعي مكثف بضرورة تسليم المدينة ، فما كان من متسلم البصرة الا الرد المباشر على ذلك الانذار برسالة تعبر عن روح المقاومة الثابتة والصمود القوي ، فمما جاء فيها :

ان اهالي المدينة متأهبون للدفاع عن مدينتهم ومقاومة الغزو والاحتلال « وها نحن لملاقاة من رامنا بسوء متأهبون وبالله على من بغى علينا مستعينون »[٧١] .

ب ـ موقف اهالي المدن واجراءاتهم التعبوية الداخلية في مقاومة تحديات الغزو العسكري الاجنبي

اذ المعروف ان نادر شاه قد فرض حصارا قاسيا على مدينة بغداد واخذت مدفعيته توجيه القنابل الى سور المدينة . فما كان من الاهالي الا الصمود والمقاومة متحملين الآم الجوع والمرض والمصاعب العديدة لمدة سبعة شهور . وما ان طرق سمعهم اخبار انتصارات العثمانيين في المعارك التي وقعت قرب الدجيل في تموز ١٧٣٣ حتى هبَّ الناس لمساعدة الحامية العسكرية التي كانت تدافع عن المدينة وذلك بشن هجوم على القوة المحاصرة ودحرها .

كذلك الحال بشأن اهالي مدينة الموصل ، اذ تعاونوا مع والي المدينة في ايلول ١٧٤٣ ، فجهز الوالي جيشا شعبيا بحوالي الف مقاتل من الخيالة ، دخل في معركة حامية مع الغزاة ، وافلحوا في ردهم واجبارهم على سحب قواتهم . كما دافع الاهالي عن مدينتهم ازاء القصف المدفعي

عن طريق متابعة اصلاح وترميم ما تهدمه المدافع .

وكان موقف اهالي مدينة البصرة اثناء الحصار الذي استمر حوالي ثلاثة شهور مماثلا لتلك المواقف ، وقد ادى صمود اهل المدينة لهجوم الغزاة في اب ١٧٤٣ ومقاومتهم له الى افشال خطة احتلال المدينة ، واجبار القوات الفارسية على الانسحاب .

ان هذه الصور والنماذج المنتخبة من مقاومة المدن العراقية لتحديات الغزو العسكري الاجنبي في التاريخ الحديث هي نماذج حية عن مقاومة المدن العربية،وان التاريخ الحديث والمعاصر يحدثنا كثيرا عن نماذج اخرى من المدن العربية المقاومة لتحديات الغزو في سوريا وفلسطين واليمن ومصر وليبيا والجزائر واجزاء اخرى من الوطن العربي . اذ اثبت اهالي هذه المدن بمختلف الشرائح الاجتماعية والاقتصادية على انهم قوة لا يستهان بها للوقوف بوجه المحتلين بالرغم من عدم تكافؤها من حيث المقدرات العسكرية والتنظيم والاسلحة مع جيوش الغزاة والمستعمرين . لكن المدينة بقوتها الشعبية وبما كانت تحمله من سلاح الايمان وقوة العزيمة في الذود عن استقلالها افلحت في رد دول عظمى والحاق الهزيمة بها . انها استطاعت ان تحقق الانتصار في الجزائر وليبيا وفلسطين وسوريا واليمن بفضل ما قدمته من تضحيات كبيرة وبفضل الحاحها في المقاومة وعدم تساومها مع الغزاة الاجانب بما

امتلكته من اسلحة الصبـر والايمـان والاستبسال فـي شتى المجالات السياســية والاجتمــاعية والفــكريـة والعسكرية ٠



الهوامش

(١) انظر

(1) Ashely: "The beginnings of towns life in the Middle Ages" in QJE (1896) p. 374; 382 Hammond, M: The City in the Ancient World 1962) p. 70; Max Weber: The City (1955) p. 8.

فوستيل دي كولانج : المدينة العتيقة [ت عباس بيومي] مصر ص١٧٦ ـ ١٧٧ ٠

(٢) انظر الجوهري : الصحاح (مادة مدن) ؛ الفيروزابادي القاموس المحيط (مادة مدن) ؛ ابن منظور : لسان العرب (مادة مدن) ؛ الزبيدي تاج العروس (مادة دين) ٠

(٣) الجوهري : الصحاح (مادة حضر) ؛ الزمخشري : اساس البلاغة (١٩٦٥) ص١٣٠ ٠

(٤) ابن خلدون : المقدمة [بيروت ـ دار الفكر] ص٢٧٢ ٠

(٥) ن ٠ م ٠

(٦) ن ٠ م ٠ص٢٧٥ ٠

(٧) انظر اليعقوبي : البلدان [ط/اوربية] ص٢٣٤ ، ٢٥١ ؛ الطبري : تاريخ الرسل والملوك (دار المعارف) ج ٧ ص٦٥٢ ـ ٦٥٣ ؛ الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ج١ ص٧٩ ـ ٨٠ ٠

(٨) ابن حوقل : صورة الارض ١٠٧ ٠ (٨ب) ابن خلدون ص٢٧٢ ٠

(9) Max Weber: The City p. 81; S.M. Stern: "The Constitution of the Islamic City" in Islamic City (Oxford 1970) p. 37, 40.

(١٠) انظر ابن منظور : لسان العرب [مادة دين] ؛ الزبيدي: تاج العروس [مادة دين] ؛ الحـــاكم النيسابوري : المستدرك على الصحيحين [بيروت] ج٤ ص٥٧٥ ·

(١١) مسند الامام احمد بن حنبل ص٢٠١ ، ٢٠٢ ·

(١٢) انظر على سبيل المثال بحث ما سينيون : Sinif في دائرة المعارف الاسلامية (ط / قديمة) ، كذلك B. Lewis في بحثه · "The Islamic Guilds" in E.H.R. (1931) p. 20.

(١٣) انظر كتاب سوفاجيه القيم (Alep) باريس ١٩٤١ ؛ كذلك كتاب Xavier de Planhol الموسوم The World of Islam (1950) p. 7, 8, 18-19.

(١٤) انظر Planhol ص٧ ، ٨ ، ٢٢ ، ٢٣ ، كذلك البرت حوراني في بحثه The Islamic City p. 13-14.

(١٥) انظر

(15) Stern: "The Constitution..." pp. 29-30; F. Benet: "The ideology of Islamic Urbanization" in International J. of Comparative Sociology (1963) p. 211-26.

(١٦) ابن خلدون : المقدمة ص٢٧٥ ــ ٢٧٦ ·

(١٧) ن · م ص٢٧٦

(١٨) ن ٠ م ص٢٧٦

(١٩) ن ٠ م ص٢٧٧

(٢٠) ن ٠ م

(٢١) انظر طه باقر : مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة ج١ ص٩٨ ـ ١١٤ ، ١٤٤ كذلك الجزء الاول المتعلق بالعراق خلال العصور القديمة ج٢ ص٢٩ ، ٣٠ ايضا مقالات Athens, Nineveh, Babylon في دائرة المعارف البريطانية ٠

(٢٢) انظر نص المرثية التي ترجمها د ٠ فوزي رشيد : العمق التاريخي للاعتداءات الايرانية على العراق ، [مجلة افاق عربية] نيسان ١٩٨٢ مجلد ٨ ص ٩ ـ ١٥ ٠

(٢٣) طه باقر : مقدمة ج١ ، ص١٣٠ ٠

(٢٤) ن ٠ م ج١ ص٢٩٨ ـ ٢٩٩ ، ٤٠٢ ؛ طه باقر واخرون : تاريخ ايران القديم (بغداد ١٩٨٠) ص٤٨، ٤٩ ؛ د ٠ فوزي رشيد : العراق القديم واعتداءات المنطقة الشرقية على حدوده [افاق عربية] عدد ٣ ـ ٤/١٩٨٠ ص٢٢٨ ٠

(٢٥) طه باقر : المقدمة ج١ ص٢١٧ ؛ طه باقر واخرون : تاريخ ايران ص٤٩ ـ ٥٠ ٠

(٢٦) طه باقر : مقدمة ج٢ ص٤٠٦ ـ ٤٠٧ ؛ طه باقر واخرون : تاريخ ايران ص٥٤ ، ٦٩ ؛ د ٠ فوزي العراق القديم [افاق عربية] ص٢٣٠ ٠

(٢٧) طه باقر : مقدمة ج٢ ص٤٠٨ ـ ٤٠٩ ٠

(٢٨) طه باقر : مقدمة ج٢ ص٣٨٢ ـ ٣٨٣ ٠
Walter, Hinz: The Lost World of Elam (Briton 1972)
p. 17, 18, 21, 22, 28.

(٢٩) طه باقر : مقدمة ج٢ ص٤٠٣ ـ ٤١٠ ؛ باقر واخرون : تاريخ ايران ص٥١ ـ ٥٢ ٠

(٣٠) د ٠ جواد علي : المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام [ط٢/١٩٧٧] ج٢ ص٤٣ ـ ٤٩ جرجي زيدان : تاريخ العرب قبل الاسلام ص١٤٠ ـ ١٤٨ ٠

(٣١) د ٠ جواد علي : المفصل ج٣ ص٢١ ، ٣١ ، ٣٢ ، ٤٩ ؛ فيليب حتي : تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين ج١ ص ٣٠٠ ـ ٣٠٤ ٠

(٣٢) د ٠ جواد علي : المفصل ج٣ ص١١٤ ، ١١٩ ، ١٢٤ ، ١٢٦ جرجي زيدان : تاريخ العرب قبل الاسلام ص٧٥ ـ ٧٨ ٠

(٣٣) د ٠ جواد علي : المفصل ج٢ / الدولة الحميرية ؛ د ٠ صالح احمد العلي : محاضرات في تاريخ العرب قبل الاسلام ص٢٨ ، ٢٩ ، ٣٠ ؛ اوليري : جزيرة العرب قبل محمد [الفصل السابع] ٠

(٣٤) الطبري : تاريخ الرسل والملوك [ت محمد ابو الفضل ابراهيم / دار المعارف بمصر] ج٢ ص١٣٢ ـ ١٣٦ ٠

(35) H. Pirenne: Medieval Cities (Princeton 1923)
p. 15, 20, 76.

(٣٦) عن الابلة قديما انظر د ٠ جواد علي : المفصل [بيروت ١٩٧٠] ج٢ ص٢٠ ـ ٢١ ؛ كذلك مقالة (Ubulla) في دائرة المعارف الاسلامية (ط/قديمة) ٠

(٣٧) انظر حول النصوص التي احتوتها رسائل الخليفة (رض) في : البلاذري : فتوح البلدان ج٢ ص٣٣٦ ، ٣٤١ ؛ الطبري : تاريخ الرسل ج٤ ص٤١ ؛ ابن عبدالحكم : فتوح مصر والمغرب [تحقيق عبدالمنعم عامر] ص١٨٣ ٠

(٣٨) ابن عبدالحكم : فتوح مصر ص١٣٢ ، ١٣٣ ؛ ياقوت الحموي : معجم البلدان [ط بيروت] ج٢ ص٢٠٠ ٠

(٣٩) الناصري : الاستقصا لاخبار المغرب الاقصى ج١ ص٧٨ ؛ ياقوت الحموي : معجم البلدان ج٤ ص٤٢١ ؛ ابن عذارى : البيان المغرب في اخبار المغرب ج١ ص١٩ ٠

(٤٠) القلقشندي : صبح الاعشى في صناعة الانشا ج٣ ص٣٣٣ ـ ٣٣٤ ، كذلك ياقوت الحموي : معجم البلدان ج٤ ص٢٦٥ ٠

(٤١) القلقشندي : صبح الاعشى ج٣ ص٣٣٤ ٠

(٤٢) الحميري : الروض المعطار في خبر الاقطار [بيروت ١٩٧٥] ص١٧٢ ، ٥٦١ ٠

(٤٣) ن ٠ م ٠ ص١٤٣ ـ ١٤٤ ٠

(٤٤) ابن حوقل : صورة الارض ص١٦٣ ؛ عن القرامطة وحلب الطبري : تاريخ ج ١٠ ص١٠٤ ، انظر ايضا مقالة (Halab) من (2) E. I. بقلم سوفاجيه ومقالة (Hamdanids) بقلم Canard

(٤٥) ابن الجوزي : المنتظم ج٧ ص٥١ ٠

(٤٦) انظر الطبري : تاريخ ج٨ ص٤٦ ٠

(٤٧) ثابت بن سنان : اخبار القرامطة [تحقيق سهيل زكار ١٩٧٠] ص٣٠ ؛ مسكويه : تجارب الامم ج١

ص١٠٦ _ ١٠٧ ؛ ابن الجوزي : المنتظم ج٦
ص١٧٣ _ ١٧٤ ·

(٤٨) انظر الطبري : تاريخ ج٩ ص٤٧٠ ، ٤٧٢ ، ٤٨١ ، ٤٨٢ ، ٤٨٣ ، ٤٨٤ ، د · عبدالجبار ناجي : «دوافع اطماع قرامطة البحرين في السيطرة على البصرة » في مجلة كلية الاداب / ١٩٧٢ ص ٦٠_٧٠ ·

(٤٩) مسكويه : تجارب الامم ج١ ص٢٧٧ ؛ ابن الجوزي : المنتظم ج٦ ص٢٦٨ ·

(٥٠) مسكويه ج١ ص٢٧٨ _ ٢٧٩ ، ٣٥٣ ؛ ج٢ ص٩٩ ، ٣٦٧ _ ٣٧١ ·

(٥١) الطبري : تاريخ ج٧ ص ٦١٥ ، ٦١٦ ، ٦١٧ ؛ المقدسي : احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم ص١١٩ الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ج١ ص٧٠ ·

(٥٢) الطبري : تاريخ ج٧ ص٦١٧ ·

(٥٣) ن · م · ج٧ ص٦١٦ ·

(٥٤) مسكويه : تجارب ج٢ ص٨٩ _ ٩١ ؛ ابن الجوزي : المنتظم ج٦ ص٣٤٩ ·

(٥٥) مسكويه : تجارب ج٢ ص٨٦ ·

(٥٦) ابن الجوزي : المنتظم ج٨ ص٢٩ ، ٤٩ ، ٥٦ ·

(٥٧) مسكويه : تجارب ج٢ ص٣٢٨ ·

(٥٨) ابن الجوزي ؛ المنتظم ج٧ ص١٧٢ ·

(٥٩) مسكويه : تجارب ج٢ ص٣٠٤ ، ابن الجوزي · المنتظم ج٧ ص٥٩ _ ٦٠ ·

(٦٠) انظر ابن الجوزي : المنتظم ج٧ ص٧٤ ، ١٥٣ ج٨ ص٥٠ ، ٥٤ ، ٧٥ ، ٧٦ ٠

(٦١) ابن الجوزي : المنتظم ج٧ ص١٢١ ٠

(٦٢) ابن الجوزي : المنتظم ج٧ ص١٢٧ ٠

(٦٣) ن ٠ م ج٨ ص٥٠

(٦٤) ن ٠ م ج٨ ص٥٧

(٦٥) ن ٠ م ج٨ ص٧٥

(٦٥ ب) ن ٠ م ج٨ ص٤٧ ٠

(٦٦) ابن الجوزي : المنتظم ج٨ ص٨٢ ٠

(٦٧) انظر ابن العبري : تاريخ مختصر الدول (بيروت ١٩٥٨] ص٢٧٢ ؛ الحوادث الجامعة : منسوب لابن الفوطي [بغداد ١٣٥١] ص٢٢٩ ؛ جامع التواريخ (القاهرة ١٩٦٠ تعريب الصياد] م ٢ ج١ ص٢٦٧ ــ ٢٦٨ ٠

(٦٨) انظر مقاومة اهالي مدينة بغداد لهجوم هولاكو الذي رافقه جيش ضخم من المغول البالغ اكثر من مائة الف عدا المشاة محمد صالح القزاز : الحياة السياسية في العراق في عهد السيطرة المغوليــة (نجف ١٩٧٠) ص٩٧ ــ ١٠٣ ٠

(٦٩) انظر عباس العزاوي : العراق بين احتــلالين ج٥ ص ٢٣٣ ؛ لونكريك : اربعة قرون من تاريخ العراق الحديث [بغداد ١٩٦٨] ص٣٣ ، ٣٤ ؛ د ٠ عــلاء

موسى كاظم نورس : حملة نادر شاه على بغـــداد ، مجلة المورد / عدد ٤ / ١٩٧٩ من ٩٦ ـ ١٠١ ٠

(٧٠) سليمان الصائغ : تاريخ الموصل ج١ ص٢٧٤ ، ٢٧٩ ، ٢٨٢ ؛ د ٠ عماد عبدالسلام : الموصل في العهـــد العثماني [النجف ١٩٧٥] ص١٠٤ ، ١٠٥ـ١٠٨ ؛ يذكر د ٠ علاء نورس ان نص الخطاب موجود بحالته المخطوطة في مكتبة الدراسات العليا / بغداد برقم (٤٤) انظر الصراع العثماني ـ الفارسي واثره في العراق حتى اواخر القرن الثامن عشر ، في الحدود الشرقية للوطن العربي [بغداد] ص٤٧ ـ ٧١ ٠

(٧١) كما اوردها د ٠ علاء نورس في الصراع العثماني ـ الفارسي ، ص ٦٤ [نص الرسالة موجودة في مكتبة الدراسات العليا في بغداد برقم (٣٠٩) ٠

رقم الايداع ٦٥٦ في المكتبة الوطنية ببغداد لسنة ١٩٨٨

طبع في مطابع دار الشؤون الثقافية العامة



الغلاف : رياض عبد الكريم

السعر ٧٥٠ فلساً

طبع في مطابع دار الشؤون الثقافية العامة